الكَوْنُ والمَجْد

أو

الفُنونُ الجَميلَة والكَنيسَة

نظم الخورِفسقفوس جرجس شِلحُت السِرياني الحَلَبي

عُفِيَ عنهُ

وهذه الأُرجوزة إنَّما هي خُلاصة أَحد أَجزاء كتابهِ المُسمَّى

النَجْوَى

في الصِناعة والعِلم والدين

١٩٠٧

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداءُ الأُرجوزة

إلى حضرة السَريّ الهُمام والأُصوليّ القانونيّ المِقدام

صَديقي الأَبرّ الأَكرم صاحب السعادة جورجي أَفندي خيَّاط الأَفخم

أدامَ الله عِزَّهُ وتأييدَه وقيَّضَ لهُ من كلِّ خيرٍ مَزيدَه

طَلَعْتَ شِهَابًا بِأُفْقِ حَلَبْ وَعَنْهَا قَشَعْتَ سَحَابَ ٱلْكُرَبْ
فَأَنْتَ ٱلنَّبِيلُ وَأَنْتَ ٱلْفَضِيلُ وَأَنْتَ ٱلْمُزِيلُ دَيَاجِيَ ٱلنُّوَبْ
وَأَنْتَ مَنَارُ طَرِيقِ ٱلْعَلَاءِ وَأَنْتَ فَخَارُ فَرِيقِ ٱلْأَدَبْ
وَأَنْتَ ٱلْمُجَلِّي وَأَنْتَ ٱلْمُحَلِّي لِجِيدِ ٱلْقَرِيضِ بِطَوْقِ ٱلذَّهَبْ
وَأَنْتَ ٱلْوَفِيُّ وَأَنْتَ ٱلْأَبِيُّ وَأَنْتَ سَرِيٌّ كِرَامِ ٱلنَّسَبْ

* * *

وَعِنْدَ ذَرَاكَ سَفِينُ ٱلْمُنَى رَسَتْ يَا إِمَامَ قُضَاةِ ٱلْأَرَبْ
«فَخِطْتَ» عَلَى رَغْمِ أَنْفِ ٱلْعِدَى بِجَدِّ جُدُودٍ وَجِدِّ حَسَبْ
رِدَاءَ هَنَاءٍ وَبُرْدَ سَنًا وَمُطْرَفَ عِزٍّ وَذَيْلَ طَرَبْ
لِخِلٍّ حَفِيٍّ صَفِيِّ ٱلْجَنَانِ تَرَاهُ يُبَاهِي بِعِلْمِ ٱلْعَرَبْ

* * *

خَلَعْتَ عَلَيْهِ كِسَاءَ ٱلْحُبُورِ وَجُدْتَ عَلَيْهِ بِمَا يُسْتَحَبْ
«بِقَرْيَةِ حُسْنٍ» حَلَتْ مَوْقِعًا حَكَى عَنْ عُلَاهُ لِسَانُ ٱلْحِقَبْ

وَطَابَتْ هَوَاءً وَمَاءً جَلَا عَنِ الْقَلْبِ كُلَّ ضُرُوبِ الْوَصَبْ
وَ«جَنَّةِ عَدْنٍ» تَبَاهُجُهَا إِلَيْهِ جَمِيعُ الْبَهَا يَنْتَسِبْ
ثِمَارُ خَمَائِلِهَا فِتْنَةٌ تُنَالُ بِأَيْدِي الْمُلَا عَنْ كَثَبْ

* * *

فَلَا بِدْعَ إِنْ كُنْتُ أُهْدِي إِلَيْكَ ثِمَارَ الدِّمَاغِ بِهٰذِي النُّخَبْ
وَأُثْنِي عَلَيْكَ ثَنَاءً بَيَا نُهُ مُسْكِرٌ كَسُلَافِ الْعِنَبْ
فَأَبْقَاكَ رَبِّي خَصِيبَ الْجَنَابِ بِعَيْشٍ رَغِيدٍ رَخِيِّ اللُّبَبْ
وَدُمْتَ مَدِيدًا بِعَصْرِ الشَّبَابِ فَشِيبَ الْإِهَابِ عَلِيَّ الرُّتَبْ
يُزَانُ بِمَدْحِكَ شِعْرِي كَمَا تَزَى الْكَأْسَ مُزْدَانَةً بِالْحَبَبْ

بِسْمِ اللهِ الفَتَّاحِ

شَرْحُ
الشِّعْرِ العَصْرِيِّ

أَلَا إِنَّ شَرْحَ الشِّعْرِ تَجْسِيمُ أَرْوَاحِ ... وَتَمْثِيلُ وِجْدَانٍ وَتَجْرِيدُ أَشْبَاحِ

وَإِيدَاعُ مِيزَانٍ فَوَاصِلَ حِكْمَةٍ ... إِذَا دَجَتِ الْأَذْهَانُ لَاحَتْ كَمِصْبَاحِ

وَتَصْوِيرُ مَا فِي كَوْنِنَا مِنْ مَشَاهِدٍ ... بِلَهْجَةِ سَفَّاحٍ وَنَغْمَةِ صَدَّاحِ

وَوَصْفُ مَعَانِي الْحُسْنِ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ ... بِهِ دَرْءُ أَتْرَاحٍ وَنَشْأَةُ أَفْرَاحِ

وَسَرْدُ أَحَادِيثٍ وَذِكْرُ حَوَادِثٍ ... تُرَوِّحُ قَلْبَ السَّامِعِينَ بِلَا رَاحِ

وَشَرْحُ فُنُونٍ تَشْرَحُ الصَّدْرَ أَبْدَعَتْ ... بِوَحْيِ إِلٰهٍ ذِي لَطَائِفَ فَتَّاحِ

طَرَائِفُهَا تَسْبِي الْعُقُولَ وَقَبْلَ لَمْ ... يَكُنْ طَرْفُ عَصْرِيٍّ إِلَيْهَا بِطَمَّاحِ

فَذَا الشِّعْرُ فِي شَرْعِي وَمَا رَجَزِي سِوَى ... سَبِيلٍ إِلَيْهِ فَاتَّخِذْهُ كَمِفْتَاحِ

وَلِجْ بَهْوَ شِعْرِ الْعَصْرِ وَاجْلُ رَوِيَّةً ... بِأَنْوَارِ مُورِي زَنْدِ فِكْرٍ وَقَدَّاحِ

وَلَا تَكُ قَوَّالًا غَدَا غَيْرَ صَادِقٍ ... يَرُومُ لُهَى الْمَجْدِي دَعْوَهُ بِمَدَّاحِ

وَلَا تَتَّبِعْ خَطْوَ الْخَطِيئَةِ هَاجِيًا ... وَلَا تَكُ تَيَّاهًا وَلَا الْمَاجِنَ اللَّاحِي

وَدَعْ عَنْكَ تَشْبِيبًا بِدَعْدٍ وَعَزَّةٍ ... فَمَا الْغَزَلُ الْمُلْتَاحُ يَوْمًا بِمُرْتَاحِ

لَئِنْ خُطْبَتِي أَوْجَزْتُ فِيهَا فَإِنَّهَا ... أَيَا صَاحِ تُغْنِي عَنْ زِيَادَةِ إِيضَاحِ

فَلَا زِلْتَ فِي سَعْدٍ وَجُودِ قَرِيحَةٍ ... تُرَاوِحُ فِينَا بَيْنَ نُجْحٍ وَإِفْلَاحِ

الكَوْنُ والمَعْبَد

أو

الفُنونُ الجميلَة والكَنيسَة

مَشْهَدُ الطَبيعَة

الدِّينُ والعِلمُ مَعَ الصِّناعَهْ ... تالُوثُ أَرْضٍ شِرْعُهُ الإِطاعَهْ
أَمامَ تالُوثِ السَّماءِ يَسْجُدُ ... وَبِاتِّفاقِ الرَّأْيِ كانَ يَعْبُدُ
فَالدِّينُ رامَ الخَيْرَ والصَّلاحا ... وَالعِلْمُ لِلحَقِّ بَغَى إِيضاحا
وَمَقْصِدُ الصِّناعَةِ الجَمالُ ... في كُلِّ فَنٍّ سِحْرُهُ حَلالُ
وَما الجَمالُ غَيْرُ مَجْلَى الحَقِّ ... وَالخَيْرِ والنِّظامِ بَيْنَ الخَلْقِ
فَالعِلْمُ فَهْمُ خِلْقَةِ الإِلٰهِ ... بِالرَّغْمِ مِنْ مُعَطِّلٍ تَيَّاهِ
وَما الصِّناعَةُ سِوَى تَمْثِيلِها ... لِعَيْنِ مَنْ يَرْغَبُ في تَخْيِيلِها
لِذَا الفُنُونُ صَدَرَتْ عَنْ مَشْهَدِ ... جَمالِ صُنْعِ البارِئِ المُمَجَّدِ
فَالكَوْنُ يَبْدُو لِلْوَرَى بَدِيعا ... وَيُبْهِجُ النَّاظِرَ والسَّمِيعا
لا يَحْسِدُ الصِّماخُ فِيهِ الطَّرْفا ... فَالإِذْنُ أَيْضًا فِيهِ تُلْفِي ظَرْفا
مِنْ جامِدٍ وَمائِعٍ وَرائِقِ ... وَنابِتٍ وَصامِتٍ وَناطِقِ
وَنافِحٍ وَفائِحٍ وَساجِمِ ... وَسابِحٍ وَصادِحٍ وَباغِمِ
وَباسِقٍ وَسامِقٍ وَزاهِرِ ... وَبارِقٍ وَشارِقٍ وَباهِرِ

---

(١) اطلُبْ فصلَ « تعريف الحُسن » الذي لم يسبقْني إلى الإفاضة فيهِ أَحَدٌ من كُتّاب العَرَب . وقد نشرتهُ في السَنة الثانية من مجلة الضياء عام ١٩٠٠

مَحاسِنُ مَلَكَتِ ٱلْمَشاعِرا ... وراحَ مِنْها كُلُّ عَقْلٍ حائِرا
عَنْ وَصْفِها تُعْجِزُ هٰذا ٱلشّاعِرا ... إِنْ كانَ فِيهِ ناظِمًا أَوْ ناثِرا
إِنْ شِئْتَ أَنْ تَجِدَها مَجْمُوعَهْ ... في مَظْهَرٍ مَنْظُورَةً مَسْمُوعَهْ
في مَظْهَرٍ يَخْطَفُ مِنْكَ ٱلْبَصَرا ... وَٱلسَّمْعَ بَلْ يَسْلُبُ مِنْكَ ٱلْفِكَرا
فَعُجْ وَلِجْ كَنِيسَةً وَأَجِلِ ... قِداحَ طَرْفٍ في بَهاءِ ٱلْهَيْكَلِ
وَعِ أَناشِيدَ ٱلصَّلٰوةِ وَكُنِ ... مُراعِيَ ٱلسَّمْعِ لِوَقْعِ ٱلْأُرْغُنِ

البِناء

كُلُّ الفُنُونِ مَظْهَرُ ٱلْجَمالِ ... وَغايَةُ ٱلتَّمامِ وَٱلْكَمالِ
تَنْظُرُها بِغَيْرِ ما جِدالِ ... في مَعْبَدٍ مِنَ ٱلطِّرازِ ٱلْعالِي
حَتّٰى يُرَدَّ ٱلطَّرْفُ في كَلالِ ... عَنْهُ وَيُلْقِي ٱلذِّهْنُ في ٱنْذِهالِ
في مَعْبَدٍ لِلّٰهِ ذي ٱلْجَلالِ ... كَمْ تَلْتَقِي لِلْحُسْنِ مِنْ مَجالِ
في مَعْبَدٍ لِرَبِّكَ ٱلْقُدُّوسِ ... مُشَيَّدٍ لِلْحَمْدِ وَٱلتَّقْدِيسِ
مَحاسِنُ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلْمُنَوَّعَهْ ... تَجِدُها بِأَسْرِها مُجَمَّعَهْ
في ٱلْكَوْنِ تَلْقَى ذٰلِكَ ٱلرَّقِيعا ... بِهِ ٱلنُّجُومُ رُصِّعَتْ تَرْصِيعا
إِنْ هُوَ إِلَّا ٱلْقُبَّةُ ٱلزَّرْقاءُ ... تَزِينُها ٱلْكَواكِبُ ٱلزَّهْراءُ
وَرَمْزُها ٱلْقُبَّةُ في ٱلْكَنِيسَهْ ... مُزْدانَةٌ بِدُرَرٍ نَفِيسَهْ
بِحُسْنِها حاكَتْ دَرارِيَ ٱلْخَضْرا ... وَٱلدُّرَرُ ٱلْغُرُّ دَرارِيَ ٱلْغَبْرا
فَنُّ ٱلْبِناءِ يا لَهُ مِنْ فَنِّ ... آدَمُ قَدْ أُلْهِمَهُ في عَدْنِ
تَرَى بِهِ مَذابِحَ ٱلْمَسِيحِ ... كَأَنَّها ٱلْجَنَّةُ في ٱلصَّحِيحِ
فَنُّ ٱلْبِناءِ مَطْمَحُ ٱلْمُؤَمِّلِ ... وَغايَةُ ٱلْفَنِّ تُرَى في ٱلْهَيْكَلِ
فَنُّ ٱلْبِناءِ أَوَّلُ ٱلْفُنُونِ ... قَدْ كانَ مَأْوَى آدَمَ ٱلْمِسْكِينِ
مِنْ بَعْدِ أَنْ طَرَدَهُ ٱلْعَلِيُّ ... حاكَى ٱلْجِنانَ جَدُّنا ٱلشَّقِيُّ

في سَفْحِ طُورٍ أَنْشَأَ الرِّياضَا ... وَسَبَّحَ الْمُهَيْمِنَ الْفَيَّاضَا
فَالْكَوْنُ كانَ مَعْبَدًا عَظِيمَا ... وَالطُّورُ كانَ مَسْجِدًا فَخِيمَا
في كَهْفِهِ كانَ الْبَيْتُ الْأَوَّلُ ... ثُمَّ ابْتِناءُ النَّفْعِ شِيدَ الْمَنْزِلُ
وَفِيهِ رَبِّي عَبْدَ الْخَلائِقْ ... بَلْ نُوحٌ شادَ مَعْبَدًا لِلْخالِقْ
وَقَدْ مَشَى النَّسْلُ عَلَى آثارِهْ ... وَطَبَعُوا حِينًا عَلَى غِرارِهْ
فَرَفَعُوا هَياكِلَ الْعِبادَهْ ... في غايَةِ الْإِتْقانِ وَالْإِجادَهْ
إِلَى زَمانٍ مَرَّ بَعْدَ الصَّرْحِ ... وَالشِّعْرُ قَدْ يَأْبَى طَوِيلَ الشَّرْحِ
إِلَى زَمانٍ فِيهِ عَيْنُ الْمَرْءِ ... زَنَتْ بِما خَطِفَهُا مِنْ مَرْئِي
فَشَيَّدُوا الْهَياكِلَ الْأَنِيقَهْ ... لِيَعْبُدُوا الْأَهْواءَ في الْحَقِيقَهْ
حاشا سُلَيْمانَ مُقِيمِ الْهَيْكَلِ ... لِلْواحِدِ الْكائِنِ مُنْذُ الْأَزَلِ
مِنْ وُلْدِ يَعْقُوبَ الْحَظِيِّينَ الْأُلَى ... خَصَّهُمُ الْمَوْلَى بِأَسْرارِ الْوَلا
عَبَدَةُ الْأَصْنامِ ضَلَّتْ شارِدَهْ ... وَعَنْ صِراطِ الْحَقِّ ظَلَّتْ حائِدَهْ
حَتَّى أَتَى مُخَلِّصُ الْخَلِيقَهْ ... لِيُصْلِحَ النُّهْيَةَ وَالْخَلِيقَهْ
فَحازَتِ الْكَنِيسَةُ الْمُقَدَّسَهْ ... فَتْحًا جَدِيدًا في سَبِيلِ الْهَنْدَسَهْ
هَنْدَسَةٌ سَنِيَّةٌ سَنِيَّهْ ... تَبْقَى بَقاءَ دَهْرِنا غَنِيَّهْ
نِظامُها الْمِنْدامُ في الْبُنْيانِ ... كَأَنَّهُ الْإِيقاعُ في الْآذانِ
وَشَرْعُها تَناسُبُ الْأَجْزاءِ ... كَأَنَّهُ تَناسُبُ الْأَعْضاءِ
ذِي وَحْدَةٌ تَقُومُ في التَّنَوُّعِ ... مَبْدَأُ حُسْنِ كُلِّ كَوْنٍ مُبْدَعِ
بَلْ «مَبْدَأُ الْجَمالِ»[1] ذاتُ الْوَحْدَهْ ... يَذْكُرُها الْكافِرُ عِنْدَ الشِّدَّهْ
وَهْيَ «إِلٰهُ الْعِلْمِ»[2] وَالْمَعارِفْ ... تَسِيرُ في ظِلِّ هُداها الْوارِفْ
وَهْيَ الَّتِي لَمْ تَشْإِ انْفِرادا ... فَأَنْشَأَتْ عالَمَنا إِيجادا
في كَوْنِها مَحْمُودَةُ الصُّنْعِ وَفِي ... مَعْبَدِها بِحَمْدِها الْخَلْقُ تَفِي

(١) حكمة ١٣ : ٣ (٢) ١ ملوك ٢ : ٣

النقاشة

لٰكِنَّهُ ٱلْكَوْنُ يَصِيرُ خَاوِيَا ... إِنْ كَانَ يَوْمًا مِنْ دُمَاهُ خَالِيَا
تِلْكَ نَبَاتٌ لَا جَمَادٌ هَامِدْ ... فِيهِ حَيَوٰةٌ حَارَ مِنْهَا ٱلْجَاحِدْ
وَحَيَوَانٌ بَيْنَ فِيهِ ٱلْإِخَا ... وَٱلْحِسُّ فَصْلٌ فَارِقٌ عَنْهُ ٱلْأَخَا
وَبَشَرٌ بِنَفْسِهِ يَحْكِي ٱلْمَلَكْ ... وَجِسْمِهِ مَعَ ٱلْبَهَائِمِ ٱشْتَرَكْ
هٰذَا دَعَوْهُ مَلَكَ ٱلطَّبِيعَهْ ... أَتَى فَكَانَتْ أَمْرَهُ مُطِيعَهْ
هٰذَا هُوَ ٱلْمَرْءُ ٱلْعَلِيُّ ٱلشَّانِ ... عَلَى مِثَالِ بَارِئِ ٱلْأَكْوَانِ
بِنَاؤُهُ بِدُونِ فَنِّ ٱلنَّقْشِ ... لَا يُشْبِهُ ٱلْكَوْنَ ٱلْبَدِيعَ ٱلرَّقْشِ
فَنُّ ٱلْبِنَاءِ قَائِمٌ بِٱلْخَطِّ ... وَدَاخِلٌ هِنْدَامُهُ فِي ٱلشَّرْطِ
فَسَطْحُهُ إِنْ لَمْ يُزَنْ بِفَتْحِ ... نَقَاشِنَا مَتْنٌ بِغَيْرِ شَرْحِ
وَصَرْحُهُ تَحْسَبُهُ أَشْبَاحَا ... جَامِدَةً فَاقِدَةً أَرْوَاحَا
إِنْ لَمْ تَقُمْ فِيهِ ٱلتَّمَاثِيلُ يُرَى ... كَٱلْأَرْضِ إِنْ حَرَمَهَا ٱللهُ ٱلْوَرَى
أَوْ كَٱلسَّمَاءِ بَرَحَتْهَا ٱلشُّهُبُ ... أَوْ كَأْسِ رَاحٍ لَمْ يَزِنْهَا ٱلْحَبَبُ
أَوْ سِلْكِ تِبْرٍ لَمْ يُحَلَّ بِٱلدُّرَرْ ... أَوْ مُزْنَةٍ ضَنَّتْ عَلَيْنَا بِٱلْمَطَرْ
أَجَلْ إِذَا ٱلْقَصْرُ خَلَا مِنْ دُمْيَةِ ... تَخَالُهُ جَوًّا خَلَا مِنْ دِيمَةِ
أَوْ بُقْعَةً قَدْ ذَبُلَتْ أَزْهَارُهَا ... وَخَسِرَتْ أَثْمَارَهَا أَشْجَارُهَا
وَغَادَرَتْ أَطْيَارُهَا ٱلْأَوْكَارَا ... لَمَّا غَدَتْ أَرْيَافُهَا قِفَارَا
لَا شَيْءَ فِيهَا يُبْهِجُ ٱلنَّوَاظِرَا ... وَيُثْلِجُ ٱلْأَسْمَاعَ وَٱلْخَوَاطِرَا
وَٱلْمَرْءُ لَا يَبْغِيهِ عَلَى ٱلتُّقَى ... سِوَى شَمِيمِهِ لِزَنْبَقِ ٱلنَّقَا
وَحَدِّهِ ٱلتِّمْثَالَ بِٱلْأَبْصَارِ ... يُذَكِّرُهُ فَضَائِلَ ٱلْأَبْرَارِ
وَسَمْعِهِ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْأَسْحَارِ ... تَشْدُو بِهَا ٱلرُّهْبَانُ فِي ٱلْأَدْيَارِ
تُسَبِّحُ ٱللهَ عَلَى ٱلْأَوْتَارِ ... وَنَغَمِ ٱلْقِيثَارِ وَٱلْمِزْمَارِ

يَجْثُو أَمَامَ دُمْيَةِ ٱلْقِدِّيسِ ... مُقَدِّسًا لِرَبِّهِ ٱلْقُدُّوسِ

مُسْتَغْفِرًا مِنْ ذَنْبِهِ ٱلْكَبِيرِ ... كَعَبْدِ سَوْءٍ آبِقٍ صَغِيرِ

مُلْتَمِسًا مِنْهُ غِيَاثًا وَمَدَدْ ... مُسْتَشْفِعًا لَهُ إِلَى ٱلْمَوْلَى ٱلصَّمَدْ

وَطَالَمَا أَصْبَحَ يَجْثُو رَاكِعَا ... أَمَامَ دُمْيَةِ ٱلطِّلَاحِ خَاضِعَا

بَيْنَ ٱلْكَمَنْجَا وَأَغَانِي ٱلْعِشْقِ ... وَرَقْصِ رَبَّاتِ ٱلْهَوَى وَٱلْفِسْقِ

مُصْطَخِبًا مُخْتَبِقًا وَٱلرَّاحُ ... أَفْرَاحُهَا تُعْقِبُهَا أَتْرَاحُ

كَانَ يَعُدُّ ٱلسَّعْدَ فِي ذَاكَ وَذَا ... لَكِنَّهُ مِنَ ٱلشِّبَاكِ أُنْقِذَا

لَدَى سَمَاعِ خُطْبَةٍ لِوَاعِظِ ... أَلْفَاظُهُ تُزْرِي بِنَثْرِ ٱلْجَاحِظِ

وَبِمَعَانِيهِ يُضَاهِي ٱلذَّهَبِي ... إِمَامَ أَهْلِ ٱلْوَعْظِ قُسَّ ٱلْخُطَبِ

فِي مَعْبَدٍ كَٱلْكَوْنِ فِي زِينَتِهِ ... وَجَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ فِي حِلْيَتِهِ

دُمَاهُ تَحْكِي فِي بَهَاءِ ٱلنَّقْشِ ... أَبْرَارَهَا تَحْمَدُ رَبَّ ٱلْعَرْشِ

مِنَ ٱلدُّمَى فِي مَعْبَدِ ٱلنَّصَارَى ... تَجِدُنَا بِلَا طِلَا سُكَارَى

وَمِنْ سَنَى رُؤَائِهَا حَيَارَى ... وَفِي قُيُودِ فَنِّهَا أَسَارَى

لَكِنَّنَا لَا نَعْبُدُ ٱلتِّمْثَالَا ... كَمَا هَذَى جُهَّالُنَا مَقَالَا

بَلْ نَتَمَثَّلُ بِهَا أَصْحَابَهَا ... مُبَجِّلِينَ كُلُّنَا أَرْبَابَهَا

ٱلشَّافِعِينَ عِنْدَ مُبْدِي ٱلنَّفْسِ ... لَنَا وَذَا لَهُمْ بَدَا كَٱلشَّمْسِ

فَعَمِهُوا بَصِيرَةً وَٱلْبَصَرُ ... غَشِيَهُ عَشَاوَةٌ أَوْ سَدَرُ

وَٱلْعُمْيُ أَعْدَاءٌ لِضَوْءِ ٱلْبَدْرِ ... وَٱلْجَهْلُ مَدْعَاةٌ لِكُلِّ شَرِّ

وَمَنْ يَكُنْ فِي ٱلْبُطْلِ وَٱلْغَوَايَهْ ... يَظُنَّ أَنَّ زَعْمَهُ هِدَايَهْ

وَمَنْ غَدَا مُحْتَرِمَ ٱلدِّرَايَهْ ... لَهُ يُخَيَّلُ بُلُوغُ ٱلْغَايَهْ

مِنَ ٱلصَّلَاحِ بَلْ بُلُوغُ ٱلْجَنَّهْ ... مُتَّبِعًا مَا وَضَعَتْهُ ٱلسُّنَّهْ

بِدُونِ أَنْ يَقِرَّ مِنْهُ ٱلنَّاظِرْ ... وَيَطْرَبَ ٱلسَّمْعُ وَيُجْلِي ٱلْخَاطِرْ

بِدُمْيَةٍ أَوْ صُورَةٍ أَوْ نَغَمِ ... تَدْعُوهُ لِلْخُشُوعِ بَلْ لِلنَّدَمِ

كَأَنَّهُ قَدْ عَدِمَ ٱلشُّعُورَا ... وَفِي ٱلْحَيَوةِ سَكَنَ ٱلْقُبُورَا
بَلِ ٱلْقُبُورُ تَقْتَضِي أَنْ تُنْصَبَا ... فِيهَا تَمَاثِيلُ ٱلَيْهَا لِتُسْحَبَا
هٰذَا جَنَاهُ ٱلْخَوْفُ مِنْ عِبَادَهْ ... لِوَثَنٍ كَانَتْ لَهُ ٱلسِّيَادَهْ
فِي غَابِرِ ٱلْأَحْقَابِ وَٱلدُّهُورِ ... وَبِٱلْمَسِيحِ كَانَ عَصْرُ ٱلنُّورِ
حَتَّى لَوِ ٱلنَّقَّاشُ رَامَ صُنْعَا ... لِدُمْيَةِ ٱللهِ لَجَاءَ بِدْعَا
نَحْتُهَا شَيْخًا وَقَارًا بَارِعَا ... جَلَالُهُ لِلْعَيْنِ يَبْدُو رَائِعَا
لَا يَدَّعِي بِذَاكَ أَنَّ ٱلْبَارِي ... مُجَسَّمٌ كَصَنَمِ ٱلْفَخَّارِ
لٰكِنَّنِي لَا أَرْتَئِي أَنْ تُصْنَعَا ... لَعَلَّ ذَا سَذَاجَةٍ أَنْ يُخْدَعَا
بِدُمْيَةِ ٱلْمَسِيحِ وَٱلْعَذْرَاءْ ... لَنَا غِنًى عَنْهَا بِلَا مِرَاءْ

الرَّسْم

وَإِنَّمَا ٱلنَّحْتُ بِلَا تَصْوِيرِ ... تُوزُهُ بَرَاعَةُ ٱلتَّحْبِيرِ
إِنْ رَامَ تَمْثِيلًا لِصُنْعِ ٱلْخَالِقِ ... فَدُونَهُ يَحُولُ أَلْفُ عَائِقِ
هَيْهَاتِ أَنْ يُمَثِّلَ ٱلْأَلْوَانَا ... وَيَنْقُلَ ٱلْأَنْوَارَ وَٱلْأَفْنَانَا
وَيَنْظِمَ ٱلْأَضْوَاءَ وَٱلْأَفْيَاءَ ... وَيَرْسُمَ ٱلْخَضْرَاءَ وَٱلْغَبْرَاءَ
فَسَدَّفَنُّ ٱلرَّسْمِ هٰذِي ٱلثَّلْمَهْ ... لِذَاكَ لِلنَّحْتِ غَدَا تَتَمَّهْ
وَهُوَ ٱلَّذِي قَدْ فَازَ فِي ٱلسِّبَاقِ ... إِنْ شُبِّهَ ٱلْإِتْنَانِ بِٱلْعِتَاقِ
فَرَسَمَ ٱلرَّوْضَ ٱلْأَرِيضَ وَٱلْفَلَكْ ... وَٱللهَ مَنْ لِلْجَلَدِ ٱلْأَسْمَى سَمَكْ
وَآدَمَ ٱلْجَدَّ وَحَوَّا وَٱلْمَلَكْ ... وَمَنْ بِكِبْرٍ وَعُتُوٍّ قَدْ هَلَكْ
مُصَوِّرًا جَنَّةَ عَدْنٍ وَٱلسَّمَا ... حَتَّى بَدَا ٱلْحُسْنُ بِهِ مُجَسَّمَا
مُمَيِّزًا بَيْنَ ٱلْبَهَا وَٱلْقُبْحِ ... وَلَيْسَ نَعْتُ طَائِرٍ كَصَدْحِ
فِي صُورَةِ ٱلْمَلَاكِ وَٱلشَّيْطَانِ ... وَطَلْعَةِ ٱلنَّسْنَاسِ وَٱلْإِنْسَانِ
وَهُوَ ٱلَّذِي يُقَرِّبُ ٱلْبَعِيدَا ... وَيَهَبُ ٱلْأَشْيَا بَهَا جَدِيدَا

إِذْ يَنْفُثُ ٱلْمَرْءُ بِهَا مِنْ نَفْسِهْ ... مُنَوِّرًا ظُلْمَتَهَا بِقَبَسِهْ

مُجَرِّدًا أَحْيَاءَهَا عَنْ رِجْسِهَا ... وَبَاعِثًا أَمْوَاتَهَا بَعْدَ رَمْسِهَا

يُعِيدُهَا لَا قَاصِدًا تَمْثِيلَهَا ... بَيْنَهَا بَلْ قَاصِدًا تَجْمِيلَهَا

مُنْتَحِيًا بِلُبِّهِ ٱلْجَلَالَا ... مُحْتَذِيًا لِرَبِّهِ مِثَالَا

مُنْتَحِلًا بِوَضْعِهِ مَقَالَهْ ... مُحَاكِيًا بِصُنْعِهِ فَعَالَهْ

مُسَافِرًا لِعَالَمِ ٱلْأَذْهَانِ ... فِي نَقْلِهِ مَشَاهِدَ ٱلْأَعْيَانِ

مُقْتَدِيًا بِٱلْمُنْشِئِ ٱلْبَدِيعِ ... فِي رَسْمِهِ لِكَوْنِهِ ٱلْبَدِيعِ

ذَاكَ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَبْتَدِعَا ... عَوَالِمًا تَكُونُ نَوْعًا أَبْدَعَا

لَا صِحَّةٌ لِقَوْلِهِمْ : لَنْ يُمْكِنَا ... بَارِي ٱلْوَرَى أَبْدَعُ مِمَّا كَوَّنَا

لَكِنَّ هٰذَا ٱلْكَوْنَ كَٱلْقِشَارِ ... مُهَنْدَمٌ مُدَوْزَنُ ٱلْأَوْتَارِ

أَشْيَاؤُهُ شَجِيَّةُ ٱلرُّنَاءِ ... هَيْئَاتُهَا بَهِيَّةُ ٱلرُّوَاءِ

مَنْثُورَةٌ فِي عَالَمٍ عَظِيمِ ... يَنْظِمُهَا ٱلرَّاسِمُ فِي رَقِيمِ

صُوَرُهَا مَطْبُوعَةٌ فِي حِسِّهِ ... كَأَنَّهُ مِرْآتُهَا بِنَفْسِهِ

يَزِيدُهَا وَسَامَةً مِنْ عِنْدِهْ ... مُخْتَرِعًا مُثُلَهَا بِجَهْدِهْ

خَيَالُهُ يُكْسِبُهَا كَمَالَا ... فَتُصْبِحُ ٱلْأَشْيَاءُ أَرْقَى حَالَا

إِذْ تُجْمَعُ ٱلْمَحَاسِنُ ٱلْمُخْتَلِفَهْ ... عَلَى ٱلنَّسِيجِ فَتُرَى مُؤْتَلِفَهْ

وَٱلرُّوحُ يُحْيِيهَا فَتَغْدُو رَاحَا ... تُسْكِرُنَا وَلَا تَرَى أَقْدَاحَا

بَلْ يَغْتَدِي ٱلْجَمَادُ حَيًّا نَاطِقَا ... بِٱلرَّسْمِ وَٱلدَّاجِي يَعُودُ شَارِقَا

وَوَرَقُ ٱلْأَشْجَارِ تُمْسِي لُسْنَا ... كَأَنَّهَا ٱلْوَرْقُ تُجِيدُ ٱللَّحْنَا

هٰذَا هُوَ ٱلرَّسْمُ وَمَا ٱلْمُصَوِّرُ ... سِوَى ٱلَّذِي بِفِكْرِهِ يَبْتَكِرُ

---

(١) راجِعْ حاشِيَةَ مُقَدِّمَةِ كِتَابِي المعروف « بالنجوى » ق ١ ف ٣ ص ٥٢

(٢) طالِعْ قولَ الكاتِبِ الفرنسَوِيِّ دِلامِناي المُثبَت في مقدّمة النجوى ق ١ ف ٤ ص ٧٥

وَيَبْتَغِي بِصُنْعِهِ ٱلصَّلَاحَا ... إِنْ صَوَّرَ ٱلْقِبَاحَ وَٱلْمِلَاحَا
إِنْ صَوَّرَ ٱلشَّيْطَانَ يَبْدُو أَشْنَعَا ... لِأَنَّ كُلَّ ٱلشَّرِّ فِيهِ ٱجْتَمَعَا
وَصَوَّرَ ٱلْمَلَاكَ يَبْدُو أَسْنَعَا ... لِأَنَّ كُلَّ ٱلْخَيْرِ فِيهِ أَنْطَبَعَا
وَصَوَّرَ ٱلْكَهْلَ تَرَى ٱلْمَهَابَهْ ... تَشْمَلُهُ حَتَّى عَلَتْ ثِيَابَهْ
وَصَوَّرَ ٱلْمَرْأَةَ تُلْفِي ٱلطُّهْرَا ... مِنْ بُرْدِهَا ٱلْأَسْنَى يَفُوحُ عِطْرَا
وَصَوَّرَ ٱلطِّفْلَ تَرَى ٱلْمَلَاحَهْ ... فِي ثَغْرِهِ بَلْ كُلِّهِ صَبَاحَهْ
ذِي صُورَةٌ لِلْأُسْرَةِ ٱلْعُلْوِيَّهْ ... تُبْصِرُهَا فِي ٱلْبِيعَةِ ٱلْقُدْسِيَّهْ
ذِي يُوسُفُ ٱلْأَبُّ وَٱلْبَتُولُ ... وَٱلْحَمَلُ ٱلْفَادِي ٱبْنُهَا ٱلْجَمِيلُ
نَادَاكُمُ هُبُّوا أَيَا نِيَامُ ... وَأَقْبِلُوا إِلَيَّ لَنْ تُضَامُوا
ضَعُوا عَنِ ٱلرِّقَابِ ذَاكَ ٱلنِّيرَا ... فِي بِيعَتِي تَلْقَوْنَ حَقًّا نُورَا
يُرِيحُكُمْ مِنَ ٱلْعَنَاءِ وَٱلنَّصَبْ ... وَعِنْدَهُ تُلْفُونَ غَايَاتِ ٱلْأَرَبْ
بَلْ يَجِدُ ٱلْمُجَرَّبُ ٱلْأَثِيمُ ... مَوَاهِبًا يُجْزَى بِهَا ٱلرَّحِيمُ
يَسُرُّهُ بِهَا ٱلْمَلَاكُ ٱلْحَارِسُ ... مِنْ كُلِّ سِرٍّ هُوَ مِنْهُ قَابِسُ
فِي بِيعَةٍ كَأَنَّهَا ٱلْعَلْيَاءُ ... بِرَشْيِهَا أَوْ رَوْضَةٌ غَنَّاءُ
بَلْ تَسْحَبُ ٱلْبِيعَةُ فِي زُخْرُفِهَا ... عَلَى ٱلدَّرَارِيِّ سَنَى مُطْرَفِهَا
فَبَهْجَةُ ٱلدُّنْيَا حَوَتْ فِي صَحْنِهَا ... وَٱلْفَلَكُ ٱلْأَسْمَى عَلَتْ فِي حُسْنِهَا
وَسَبَّحَتْ بِحَمْدِ رَبِّ ٱلْفَلَقِ ... أَجْوَاقُهَا فِي شَفَقٍ وَغَسَقِ
وَٱلسُّرُجُ تَحْتَ قُبَّةِ ٱلْكَنِيسَهْ ... قَدْ مَثَّلَتْ أَنْوَارَهُ ٱلْقُدُّوسَهْ
وَكُلُّ جَوْقٍ فَوْقَ جَوْقٍ قَدْ سَمَا ... كَٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى وَسُكَّانِ ٱلسَّمَا

ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمُنْتَظِمَة

صَفٌّ يَسِيرُ مِنْ وَرَاءِ صَفِّ ... فِي حَفْلَةٍ أَجَلُّهَا عَنْ وَصْفِ
هٰذِهِ هِيَ ٱلْحَرَكَةُ ٱلْمُنْتَظِمَهْ ... تَجِدُهَا فِي طَبْعِ كُلِّ نَسَمَهْ

جَذْبٌ وَدَفْعٌ مَبْدَأُ ٱلْعَوالِمِ ... مِنْ كُلِّ جارٍ فِي ٱلْفَضا وعائِمِ
وَهْوَ نِظامُ سائِرِ ٱلْكَواكِبِ ... مِنْ كُلِّ نَجْمٍ ثابِتٍ وثاقِبِ
فَٱلْكَوْنُ يُلْفى أَبَدًا في حَرَكَهْ ... وَقِيلَ فِيها ٱلْمَرْءُ يَلْقى ٱلْبَرَكَهْ
فَأَوَّلًا تَحَرَّكَتْ بِٱلطَّبْعِ ... أَقْدامُهُ تَحْتَ فُرُوضِ ٱلشَّرْعِ
لِجَلْبِ نَفْعٍ أَوْ لِدَفْعِ ضَرِّ ... مُحاكِيًا لِحَيَوانِ ٱلْبَرِّ
ثُمَّ ٱنْثَنى حَتَّى بِوَقْعِ قَدَمِهْ ... يَفْرَعُ أَسْبابَ ٱلسَّما بِسُلَّمِهْ
لِحَرَكاتِ ٱلزُّهْرِ كَمْ مِنْ وَزْنِ ... يُلَقِّنُ ٱلْإِنْسانَ فَنَّ ٱلزَّفْنِ
لِعَقْلِهِ قَدْ كُشِفَتْ أَسْرارُهْ ... وَإِنْ عَلى ٱلطَّرْفِ ٱخْتَفَتْ آثارُهْ
لِأَنَّهُ بِعِلْمِهِ كَعالَمِ ... وَفَهْمِهِ مِثْلُ أَبِيهِ آدَمِ
ذَاكَ غَدا مَعَ ٱلزَّمانِ عالِمًا ... وَذَا أَتى مِنَ ٱلْجَنانِ فاهِمًا
ذَاكَ لَدُنْ أُسْتاذِهِ قَدْ عُلِّما ... وَذَا لَدُنْ ذارِئِهِ قَدْ أُلْهِما
ذَاكَ وَذَا قَدْ حُصِرا في حَيِّزِ ... وَحاوَلا أَوْبِهُما لِلْمَرْكَزِ
كِلاهُما شَغَلَهُ ٱلْمَكانُ ... بِجِسْمِهِ وَساءَهُ ٱلزَّمانُ
وَقَدْ بَدا قَصَبَةً مُحَرَّكَهْ ... تَقْصِفُها لِلرِّيحِ كُلُّ حَرَكَهْ[1]
لٰكِنَّهُ بِنَفْسِهِ كَمَلَكِ ... أَوْ مِثْلُ وَرْقا وَقَعَتْ في شَرَكِ
لَقَدْ دَرَى بِحَرَكاتِ ٱلْفَلَكِ ... فَراحَ يَحْكِيها بِغَيْرِ دَرَكِ
مُسْتَخْدِمًا لِلْحَزْمِ وَٱلْإِدْراكِ ... لَعَلَّهُ يَنْجُو مِنَ ٱلْأَشْراكِ
مُؤْتَسِيًا بِبُلْبُلٍ في قَفَصِ ... قَدْ مارَسَ ٱلرَّقْصَ عَقِيبَ ٱلْقَنَصِ
عَلامَةُ ٱلْحَيَوةِ فِيهِ ٱلْحَرَكَهْ ... وَٱلسَّكَناتُ مَظْهَرٌ لِلْهَلَكَهْ
يَطِيرُ وَقْتًا ثُمَّ وَقْتًا يَقَعُ ... هاتِيكَ إِيقاعاتُهُ يا أَلْمَعُ
تُذَكِّرُهُ حُرِّيَّةً في ٱلْمَنْزِلِ ... وَعَهْدَهُ مَعَ ٱلْحَبِيبِ ٱلْأَوَّلِ

---

(١) أُطْلُبْ قولَ الكاتِبِ الفرنسَويّ بَسْكال المُدْرَج في مُقدّمة النحوى ق ١ ف ٤ ص ٧٤

فَيَبْتَغِي تَخَلُّصًا مِنْ أَسْرِهْ ... مُؤَمِّلًا عَوْدَتَهُ لِوَكْرِهْ
تَغْرِيدُهُ يُطَرِّبُ ٱلْفُؤَادَا ... وَزَفْنُهُ يُرَقِّصُ ٱلْجَمَادَا
هٰذَا ٱلَّذِي غِبْطَتُهُ قَدْ فَقَدَا ... وَجْدُهُ عَنِ ٱلنَّعِيمِ أَطْرَدَا
هٰذَا ٱلَّذِي مَعَ تَمَادِي ٱلزَّمَنِ ... كَأَنَّهُ نَسِيَ عَهْدَ ٱلْوَطَنِ
كَذَٰلِكَ نَسِيَ ٱلْأَلِيفَا ... وَجَنَّةً كَانَ بِهَا مَشْغُوفَا
فَأَلِفَ ٱلدُّنْيَا وَعَافَ ٱلدِّينَا ... وَشَوَّهَ ٱلْعَادَاتِ وَٱلْفُنُونَا
وَدَنَّسَ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْأَفْعَالَا ... وَأَفْسَدَ ٱلْأَمْيَالَ وَٱلْأَعْمَالَا
فَوَلَجَ ٱلْفَسَادُ فَنَّ ٱلرَّقْصِ ... لِمَا سَرَى فِي خِيمِهِ مِنْ نَقْصِ
لٰكِنَّهُ فِي بَدْئِهِ رِيَاضَهْ ... وَنِعْمَةٌ عَلَى ٱلْفَتَى مُفَاضَهْ
بَلْ كَانَ مِنْ شَعَائِرِ ٱلْعِبَادَهْ ... يُرَافِقُ ٱلْإِنْشَادَ وَٱلْإِشَادَهْ
وَقَدْ غَدَا بَيْنَ فُنُونِ ٱلشَّكْلِ ... وَٱلصَّوْتِ مِثْلَ هَمْزَةٍ لِلْوَصْلِ
سِلْسِلَةٌ فُنُونُهَا مُفَرَّعَهْ ... عَنْ وَحْدَةِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُنَوَّعَهْ
يَجْمَعُ مَا بَيْنَ ٱلْبِنَا وَٱلرَّسْمِ ... وَبَيْنَ فَنِّ ٱلْمُوسِقَى وَٱلنَّظْمِ
مَجْلَى ٱلنِّظَامِ تِلْكَ فِي ٱلْمَكَانِ ... وَهٰذِهِ مَجْلَاهُ فِي ٱلزَّمَانِ
وَٱلرَّقْصُ ظَلَّ مَظْهَرَ ٱلنِّظَامِ ... فِي ٱلْأَيْنِ وَٱلْآنِ لَدَى ٱلْأَنَامِ
مُزَاوِلُو ٱلزَّفْنِ ذَوُو قَوَامِ ... وَصُورَةٍ وَهَيْئَةِ ٱنْتِظَامِ
ضَمُّوا إِلَى ٱلْإِيقَاعِ فِي ٱلْأَنْغَامِ ... حَرَكَةَ ٱلْأَقْدَامِ فِي هِنْدَامِ
وَظَهَرُوا بِمَظْهَرِ ٱحْتِشَامِ ... فِي مَعْرِضِ ٱلْإِقْدَامِ وَٱلْإِحْجَامِ
بِدُونِهِ ٱلرَّقْصُ مِنَ ٱلْحَرَامِ ... وَٱلشَّرِّ بَلْ مَجْلَبَةُ ٱلْحِمَامِ

---

(١) راجعْ مَقالتي المُستطرَفة في تأويل قَصيدة ابن سِينا في النفس المنشورة في السَنة الثانية من مجلّة المشرق عام ١٨٩٩. وقد ختمتُها بأبياتٍ دَعَوتُها « الذِكرى » وضمّنتُها صَدرَ مطلع مُعلّقة أمرىء القَيس ودونَكَ بيتَ التَضمين :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... هُمَا ٱللهُ وَٱلْفِرْدَوْسُ مَوْطِنُ آدَمِ

لِأَنَّهُ يُحَرِّكُ ٱلْأَهْوَاءَ ... فَتُورِثُ ٱلْأَسْوَاءَ وَٱلْأَرْزَاءَ
نَصِيبُهُ نَصِيبُ كُلِّ فَنِّ ... ذَوُوهُ فِي خَلَاعَةٍ وَأَمْنِ
وَإِنَّمَا ٱلزَّمْرُ مِنَ ٱلْفُنُونِ ... مَرْمَى أَمَانِيِّ بَنِي ٱلْيَأْسِ
دَاوُدُ قَامَ بِشُجُونِ ٱلزَّمْرِ ... وَكَانَ مَلْكًا مُولَعًا بِٱللَّحْنِ
أَمَامَ تَابُوتٍ لِذَاكَ ٱلْعَهْدِ ... وَقَدْ بَغَى إِرْضَاءَ رَبِّ ٱلْمَجْدِ
وَتَجِدُ ٱلْطَغْمَاتِ يَوْمَ ٱلْحَفْلَةِ ... تَسِيرُ سَيْرَ ٱلشُّهْبِ حَوْلَ ٱلْبِيعَةِ
يَرْفُلُ كُلٌّ مِنْهُمُ فِي حُلَّةِ ... كَأَنَّهُ ٱلْبَدْرُ بَدَا فِي دُجُنَّةِ
وَٱلْهَيْكَلُ ٱلْكَاسِي ضُرُوبَ ٱلزِّينَةِ ... تُبْصِرُهُ مِنْ أَلْبَهَا فِي شُعْلَةِ
وَٱلْأُرْغُنُ ٱلشَّادِي ٱلشَّجِيُّ ٱلنَّغْمَةِ ... تَسْمَعُهُ مُؤَثِّرًا فِي ٱلصَّخْرَةِ

ٱلْمُوسِيقَى

وَهٰهُنَا أُوَسِّعُ ٱلْمَجَالَا ... إِلَى فُنُونٍ تُعْجِزُ ٱلْمَقَالَا
تِلْكَ ٱلَّتِي مَرَّتْ بِنَا لِلنَّظَرِ ... وَكَمْ تَنَالُ إِنْ بَدَتْ مِنْ حَبَرِ
لٰكِنَّ هٰذِهِ خُصِّصَتْ بِٱلسَّمْعِ ... وَكَمْ تَحُوزُ إِنْ شَدَتْ مِنْ نَفْعِ
فَآلَتَا ٱلْحُسْنِ هُمَا عَيْنُ ٱلْفَتَى ... وَأُذْنُهُ وَٱلْأُذْنُ أَوْلَى بِٱلنُّهَى

---

(١) إنَّ البَصَر والسَمْع هُما آلتا الحُسن الطَبيعيّ والصِناعيّ دُونَ سائر الحَواسّ والحُجَّةُ في ذٰلك أنَّ التأثيرَ المُتأتّي عن اللَمْس والشَمّ والذَوْق لا يُحدِثُ إحساساً ولا تصوُّرًا البتَّة . على أنَّ اللينَ والصُلْب والحارّ والبارد والأَرِج والذَفِر واللَذيذ والتَفِه إنَّما هي فواعِل عَقيمة بذاتِها يُمكِنُها أنْ تُعِدَّ للنفس بعضَ عَواطِف وتُذكِّرها ببعض أفكار بيدَ أنَّها ليسَت بكفيَّة أبدًا أنْ تُصدِر تلكَ العواطِف والأفكار . وأمَّا البَصَر والسَمْع فهما رائدا القَلب والعَقل وما المنظور والمسموع سِوى مِحوَر الإحساسات والتصوُّرات . وعندي أنَّ السَمْع يخدِم النفس خِدمةً لا يُؤدّيها البَصَر وفي المتن أدِلّةٌ على ذٰلك لا يذوقُها إلّا أُلو النَظَر انتهى مُلخَّصًا عن جزء الصِناعة من كتاب النجوى وهو الجزء الذي هٰذه الأُرجوزة المُبتكَرة هي زُبدَته

تِلْكَ تَرَى إِذَا رَنَتْ أَلْوَانَا ... وَذِي تَعِي إِنْ نَصَتَتْ أَلْحَانَا
تِلْكَ تَرَى ٱلْمِيَاهَ فِي ٱلْغَدِيرِ ... وَهٰذِهِ تُصِيخُ لِلْخَرِيرِ
تِلْكَ تَشِيمُ بَارِقًا مِنْ نُورِ ... وَهٰذِهِ تَسْمَعُ رَعْدَ ٱلطُّورِ
وَٱلْكَهْرَبَا وَقُوَّةُ ٱلْبُخَارِ ... أَثَرُهَا فِي مَسْمَعِ ٱلنُّظَّارِ
أَشَدُّ مِمَّا تَجْتَلِيهِ ٱلْعَيْنُ ... فَبَيْنَ نَصْتٍ وَرَنُوٍّ بَوْنُ
وَكَمْ تَرَى ٱلْأَكْمَهَ سَامِي ٱلْعَقْلِ ... وَتَجِدُ ٱلْأَصَمَّ طَامِي ٱلْجَهْلِ
وَمَنْ أُصِيبَ بِضِيَاعِ ٱلْبَصَرِ ... وَٱلسَّمْعِ لَمْ تَعْدُدْهُ بَيْنَ ٱلْبَشَرِ
وَلَوْ غَدَتْ أُرْجُوزَتِي مُنَاظِرَهْ ... لَطَالَ وَصْفِي لَهُمَا مُفَاخِرَهْ
لٰكِنَّنِي زَعَمْتُ أَنَّ ٱلسَّمْعَا ... إِلَى ٱلشُّعُورِ بِٱلْجَمَالِ أَدْعَى
فَإِنَّ بَعْضًا مِنْ بَرَايَا ٱللهِ ... عَنْ رَمْقِهَا يَقْصُرُ طَرْفُ ٱلسَّاهِي
وَهْيَ إِذَا أَعَارَهَا سَمَاعَا ... أَعْمَى تَطِيرُ نَفْسُهُ شَعَاعَا
وَكُلَّمَا تَرَقَّتِ ٱلْخَلَائِقْ ... زَادَتْ عَلَى ٱلْعَيْنِ خَفَا خَلَائِقْ
وَإِنْ غَدَا ٱلْكَوْنُ لَنَا فِي صَمْتِ ... لَمْ نَجْتَزِئْ بِمَا بَدَا مِنْ سَمْتِ
وَبَقِيَتْ مَسْتُورَةً حَقَائِقُهْ ... عَنَّا وَلَمْ تُكْشَفْ لَنَا دَقَائِقُهْ
وَإِنَّمَا ٱلْكَوْنُ لَهُ أَصْوَاتُ ... فَإِنْ عَدَتْهُ حَلَّهُ ٱلْمَوَاتُ
بَلْ تَغَمَاتُ كَوْنِنَا رَخِيمَهْ ... وَمُوسِقَاهُ جَزْلَةٌ فَخِيمَهْ
هٰذِي بَدَتْ عِبَارَةَ ٱلنِّظَامِ ... لَدَى ٱلْمَلَا وَحِلْيَةَ ٱلْأَنَامِ
كَانَتْ تَعُمُّ ٱلشِّعْرَ وَٱلْخَطَابَهْ ... «قَالَ» عَنَتْ قِدْمًا «شَدَا خِطَابَهْ»
عِنْدَ جَمِيعِ نَاشِئَاتِ ٱلْأُمَمِ ... مِنْ قَبْلِ سُحْبَانَ ٱلْعَرِيقِ ٱلْقَدَمِ
كَلَامُهَا بَنَتْ عَلَى ٱلْأَوْزَانِ ... مَشْفُوعَةً بِنَبْرَةِ ٱلْأَلْحَانِ

---

(١) طَالِعْ قَوْلَ ٱلْخَطِيبِ ٱلْفَرَنْسَوِيِّ ٱلْكَبِيرِ ٱلْأَبِ مُنْسَبْرَايِ ٱلْمُثْبَتِ فِي مُقَدِّمَةِ ٱلنَّجْوَى ق ١ ف ٥ ص ٨٤ حَيْثُ فُسِّرَتْ آيَةُ ٱلْكِتَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَهِيَ : «رَتَّبْتَ كُلَّ شَيْءٍ بِمِقْدَارٍ وَعَدَدٍ وَوَزْنٍ» حك ١١ : ٢١

أُومِيرُسُ كانَ يُغَنِّي شِعْرَهُ ... وَالْمَرْءُ بَعْدَ الشِّعْرِ عُدَّ نَثْرَهُ
وَالشِّعْرُ مُشْتَقٌّ مِنَ الشُّعُورِ ... وَالْمُوسِقَى إِلَّا السُّرُورِ
بَلْ رَبَّةُ الْحِكْمَةِ وَالشَّجَاعَهْ ... وَقَتًا وَوَقْتًا رَبَّةُ الْخَلَاعَهْ
وَإِنَّ مِنْ شِعْرِ الْوَرَى لَحِكْمَهْ ... طَوْرًا وَمِنْهُ تَارَةً لِوَصْمَهْ
عَنِ الْأَسَى تِلْكَ رَوَتْ أَحْيَانَا ... وَذَاكَ أُخْرَى يَبْعَثُ الْأَحْزَانَا
فَالْأَخَوَانِ يُطْرِبَانِ الصَّخْرَا ... خَنْسَاؤُنَا تَرْثِي أَخَاهَا صَخْرَا
إِذْ فُصِلَتْ مِنْ بَعْدُ فَنَّاءَ عَنْهُ ... كَأَنَّهَا فِي الْبَدْءِ لَيْسَتْ مِنْهُ
فَصَلَهَا الْفَرَنْجُ وَالْأَعْلَامُ ... دَرَوْا بِأَنَّ شِعْرَهُمْ أَنْغَامُ
قَدْ بَخَسُوهُ حَقَّهُ لَمَّا غَدَا ... رِتَاجُهُ عَنْ مُوسِقَاهُمْ وُصِدَا
وَحِينَمَا تَفَنَّنُوا فَأَلَّفُوا ... بِغَيْرِ شِعْرِ جَوْقَهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا
بَلْ أَنْصَفُوا لِأَنَّهُمْ أَجْوَاقُ ... بِمُوسِقَاهُمْ وَقَعَ الْوِفَاقُ
فَكُلُّهُمْ فِي سَيْرِهِمْ رِفَاقُ ... وَمِصْرُنَا لَمْ يُغْنِهَا الطِّبَاقُ
وَلَا الْغِنَاءُ الْمُفْسِدُ الْأَهْوَاءَ ... حَتَّى أَنَالَ أَهْلَهَا اللَّأْوَاءَ
دَهَمَهُمْ أَجَانِبٌ فَمَلَكُوا ... قِيَادَهُمْ فَبَرَكُوا وَارْتَبَكُوا
إِذْ فِي طَرِيقِ قَهْرِهِمْ قَدْ سَلَكُوا ... وَفِي الْغِنَى لَا فِي الْغِنَاءِ اشْتَرَكُوا
وَسَلَّمُوا بِسُلَّمٍ صَحِيحِ ... بِهِ ارْتَقَوْا وَعَبَثُوا بِالرِّيحِ
جَوَابُهُمْ قَدْ طَابَقَ الْقَرَارَا ... وَصَوْتُهُمْ قَدْ طَبَّقَ الدِّيَارَا
سَاقُوهُمُ سَوْقَ الْجِمَالِ بِالْحُدَا ... وَإِنْ شَدَا بُلْبُلُهُمْ وَأَنْشَدَا
هٰذَا لَهُمْ أَتَاحَهُ الْخُمُولُ ... فَاحْتَلَّ فِي رَوْضِهِمِ الذُّبُولُ[٢]

---

(١) إِشَارَةٌ من طَرْفٍ خَفِيٍّ إِلى بُلْبُلِ مِصر الشَّاعِرِ المشهور صاحب «الشوقيّات»

(٢) يا لله والأمر لله لقد أناخ الذبول بأرض مصر ومدّ أطنابه واستولى عليها الخمول وضرب فوقها قبابه ولاسيّما في هذه الأيام التعسة التي لا تسمع فيها إلّا خبر بيوتاتٍ خربت ودُمّرت وثروات كانت تُشرق في الشرق كالشموس

مَا بَالُنَا تَجْرُنَا ٱلْأَفْكَارُ ... وَٱلْمُوسِيقَى مَطْلَبُنَا ٱلْمُخْتَارُ
هٰذِهِ لَنَا عِنْدِي ٱلْمَقَامُ ٱلْأَوَّلُ ... لِأَنَّهَا ٱلْإِحْسَاسُ وَٱلتَّعَقُّلُ
مُجْتَمِعَيْنِ طَابِعَيْنِ ٱلْفَارِقَا ... مُقَوِّمَيْنِ حَيَوَانًا نَاطِقَا
هٰذِهِ هِيَ ٱلْإِيقَاعُ مِنْ تَرْجِيعِ ... صَدَى ٱلدُّنَى عَوَالِمِ ٱلرَّقِيعِ
فَمَنْ نِظَامِهَا بَدَا ٱلْإِيقَاعُ ... فَوَضَحَتْ أُصُولُهُ ٱلْأَسْمَاعُ
وَعَنْ قَصِيفِ ٱلرَّعْدِ وَٱلتَّيَّارِ ... وَعَنْ حَفِيفِ وَرَقِ ٱلْأَشْجَارِ
وَعَنْ صَفِيرِ ٱلرِّيحِ وَٱلْإِعْصَارِ ... وَعَنْ خَرِيرِ ٱلْمَاءِ فِي ٱلْأَنْهَارِ
وَعَنْ هَدِيرِ ٱلْوُرْقِ وَٱلْقَمَارِي ... وَعَنْ غِنَاءِ سَائِرِ ٱلْأَطْيَارِ
لٰكِنَّهُ ٱلْمِزْمَارُ لَا يَبْتَكِرُ ... فَمُوسِيقَاهُ نَقْصُهَا مُقَرَّرُ
لِكَوْنِهِ لَا يَمْلِكُ ٱلْأَفْكَارَا ... وَإِنْ حَكَى بِصَدْحِهِ ٱلْمِزْمَارَا
هٰذَا لَقَدْ صَنَعَهُ ٱلْإِنْسَانُ ... فَهْوَ لَهُ لَا صَدْحُهُ عُنْوَانُ
وَإِنْ تَغَنَّى ٱلْمَرْءُ فَٱلْمِزْمَارُ ... مُقَصِّرٌ إِذْ صَوْتُهُ مِضْمَارُ
لِكُلِّ فِكْرٍ بِٱلسَّمَا يُعَلَّقُ ... إِذَا عَنِ ٱلْمِزْمَارِ حَقًّا يُفْرَقُ
وَلَوْ رَأَيْتَ ٱلْمَرْءَ فِيهِ يَنْفُخُ ... بِٱلنَّفْخِ مَا عَلَى ٱلْشُّوعِ يَبْعَثُ
إِذَا دَرَى بِصَوْتِهِ ٱلْمُحَدَّثُ ... بِكُلِّ آلَاتِ ٱلْغِنَاءِ يَعْبَثُ
فَآلَةُ ٱلتَّطْرِيبِ لَنْ تُعَبِّرَا ... كَٱلصَّوْتِ عَنْ وِجْدَانِهِ إِنْ فَكَّرَا
وَيَعْجَزُ ٱلشُّعُورُ عَنْهُ مُنْشِدَا ... لِأَنَّهُ أَعْجَمُ مَا تَغَرَّدَا

فغَرَبَتْ في الغرب وكَوَرِتْ ابتَلَعَها « الحُوت » ولم يُبْقِ لأربابِها غيرَ القُوت بل لم يَعُدْ كلٌّ منهم سِوى قَتِير سُبْرُوت أجارَنا الله من هٰذه الرَزِيَّة في ظِلّ دولتِنا العُثمانيّة العَليّة وسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون وَإِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون

(١) قال بعضُ الفلاسفة: « الموسيقى حِكمةٌ عجزتْ عن إظهارها الألفاظ فأظهرتها الاصوات فلمّا أدركتها النُفوس عشِقتْها »

بَلْ هُوَ ٱلْمِنْطِيقُ فَاقَ مَنْ شَدَا ... فِي كَوْنِنَا وَرَاحَ يُحْيِي ٱلْمَعْبَدَا
لَوْ رَاحَ يَشْدُو نَغَمًا مُبْتَدَعَا ... بِذِهْنِ مَنْ كَانَ لَهُ مُخْتَرِعَا
لَخِلْتَ أَنَّ ٱلْحُسْنَ صَارَ صَوْتَا ... وَأَنَّكَ ٱلسَّمَاءَ قَدْ عَلَوْتَا
تَسْمَعُ فِيهَا زُمَرَ ٱلْمَلَائِكْ ... وَفِرَقَ ٱلْأَبْرَارِ فِي ٱلْأَرَائِكْ
يُسَبِّحُونَ رَبَّهُمْ بِنَغَمِ ... «مَا خَطَرَتْ عَلَى قُلُوبِ ٱلنَّسَمِ»[1]
وَٱلْأُرْغُنُ ٱلْبَاغِي مُحَاكَاةً لَهُ ... بِلَحْنِهِ عَابِدُنَا يُؤَلِّهُ
وَٱلْعَاشِقُ ٱلْمُدَلَّهُ ٱلْمُوَلَّهُ ... مِنْ سَمْعِ إِيقَاعَاتِهِ يُنَبَّهُ
فِي هَيْكَلٍ أَصْوَاتُهُ تُعْتَبَرُ ... إِنْعَامَ رَبٍّ تَوْبَهُ يَنْتَظِرُ
وَإِنْ تَمَادَى فِي دَيَاجِي ٱلْغَفْلَةِ ... جَرَسُهُ يَجْعَلُهُ فِي يَقْظَةِ

الشِّعْر

يُبَادِرُ ٱلْعَارِي ٱلتُّقَى لِلْبِيعَهْ ... فَيُجْزِلُ ٱللهُ لَهُ ٱلصَّنِيعَهْ
فَيَلْبَسُ ٱلتَّقْوَى شِعَارًا عِنْدَمَا ... يُصْغِي إِلَى ٱلصَّلَاةِ نَظْمِ ٱلْحُكَمَا
مِنْ مِثْلِ أَفْرَامَ ٱلْمُجِيدِ ٱلْقَوْلِ ... وَكَمْ حَبَا فِي شِعْرِهِ مِنْ طَوْلِ
حَاكَى بِهِ هَدْرَ حَمَامِ ٱلزَّاجِلِ ... وَسَجْعَ وُرْقٍ وَغِنَا عَنَادِلِ
هٰذَا هُوَ ٱلصِّدْقُ إِذَا تَرَنَّمَا ... هٰذَا هُوَ ٱلْكَمَالُ إِنْ تَنَغَّمَا
هٰذَا هُوَ ٱلْحَقُّ إِذَا تَكَلَّمَا ... هٰذَا هُوَ ٱلْجَمَالُ إِنْ تَجَسَّمَا
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ ٱلْقَدِيمُ ٱلْقَرْضِ ... وَهْوَ ٱلْقَشِيبُ بِدَوَامِ ٱلْفَرْضِ
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمُجَلُّ ٱلْقَوْمَا ... بِهِ ٱلْفَتَى كَانَ خَطِيبًا يَوْمَا
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمُجَلُّ مَنْ شَدَا ... بِهِ ٱلْفَتَى كَانَ ٱلْمُغَنِّي ٱلْمُنْشِدَا
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمُحَاكِي ٱلْوَحْيَا ... يُحْيِي رُسُومَ ٱلْجَهْلِ فِينَا مَحْيَا
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمُحَاكِي ٱلْبُلْبُلَا ... فِي صَدْحِهِ وَهْوَ يُعَدُّ ٱلْأَوَّلَا

---

(١) أشعيا ٦٤ : ٤ و ١ كورنثس ٢ : ٩

لِأَنَّهُ كَلَامُ بَارِي ٱلْخَلْقِ ... أَنْزَلَهُ عَلَى ٱلْوَرَى لِلْحَقِّ
ثُمَّ غَدَا ٱلشِّعْرُ كَلَامَ ٱلْمَلَقِ ... بِهِ ٱلْفَتَى ٱكْتَسَى بِثَوْبِ خَلَقِ
فِي بَدْئِهِ كَانَ بَدِيعَ ٱلنَّسَقِ ... بِهِ ٱلْفَتَى أَشْبَهَ رَبَّ ٱلْفَلَقِ
يَبْتَكِرُ ٱلْمَعْنَى بِهِ ٱبْتِدَاعَا ... وَيَخْلُقُ ٱلشَّيْءَ بِهِ ٱخْتِرَاعَا
لَا يُحْدِثُ ٱلْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ عَدَمْ ... لِعَالَمِ ٱلصُّنْعِ يُحَاكِي فِي ٱلنَّغَمْ
فَٱلْكَوْنُ شِعْرٌ فَائِقُ ٱلْبَدَاعَهْ ... سَامِي ٱلنِّظَامِ بَاهِرُ ٱلصَّنَاعَهْ
وَٱلْمَرْءُ فِي قَرِيضِهِ يُمَثِّلُ ... مَشَاهِدَ ٱلْكَوْنِ وَمَا يُخَيِّلُ
مُجَرِّدًا بِفِكْرِهِ ٱلْأَشْبَاحَا ... مُجَسِّمًا بِلَفْظِهِ ٱلْأَرْوَاحَا
مُنَسِّقًا بِأَبْدَعِ ٱلنِّظَامِ ... مُحَاوِلًا لِغَايَةِ ٱلتَّمَامِ
مُدَوِّمًا حَوْلَ ذُرَى ٱلْمَجَازِ ... مُحَلِّقًا فِي فَلَكِ ٱلْإِعْجَازِ
مُصَوِّرًا بِذَوْقِهِ ٱلْجَمَالَا ... فِي ٱلْكَوْنِ أَوْ فِي مَا غَدَا خَيَالَا
كَأَنْ يُصَوِّرَ ٱلْيَرَاعُ مَعْبَدْ ... مُشَيَّدًا بِفِضَّةٍ وَعَسْجَدْ
جُدْرَانُهُ بِأَسْرِهَا زَبَرْجَدْ ... وَأَرْضُهُ وَسَقْفُهُ زُمُرُّدْ
نَظِيرَ مَا قَدْ جَاءَ فِي ٱلرُّؤْيَا وَمَا ... ذَكَرَهُ صَاحِبُهَا عَنِ ٱلسَّمَا
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمُحَاكِي ٱلْكَوْنَا ... نَاظِمُهُ يُلْفِي ٱلْبَدِيعَ عَوْنَا
وَيَزْدَرِي أَقْيِسَةَ ٱلْبَدِيعِ ... وَيَرْتَقِي عَوَالِمَ ٱلرَّقِيعِ
جَوْزَ ٱلْفَضَا مِنْ غَيْرِ مَا مُنْطَادِ ... يَخْرُقُهُ بِذِهْنِهِ ٱلْوَقَّادِ
وَيَفْرَعُ ٱلصُّرُودَ وَٱلْأَطْوَادَا ... وَيَعْرِفُ ٱلْعُرُوضَ وَٱلْأَبْعَادَا
وَيُدْرِكُ ٱلْمَعَادَ وَٱلْمَآلَا ... «مُعْتَبِرًا مَا فِي ٱلدُّنَى زَوَالَا»

---

(١) أُطالِبُ العَدَدَ السابع من مقدّمة « الدُّروس الأوّليّة في الفلسفة العقليّة » وهو الكُتَيِّبُ الذي نَفَثَ فيه إمامُ اللُّغَة والشِعر الأُستاذ ابرٰهيم أفندي الحورانيّ بعضَ نَفَثات هي نَفائِس الطُّروس وسِحرُ الألباب ورَيحانةُ النُّفوس

(٢) ١ كورِنتُس ٧ : ٣١

مُسَلِّمًا هٰذَا الْوَرَى الْفُرُوضَا ... وَجَاعِلًا مَثَلَهُ الْبُعُوضَا

مُمَثِّلًا مُهَذِّبًا لِلْخَلْقِ ... مُغَيِّلًا مُنَوِّرًا لِلْخَلْقِ [٢]

مُسْتَخْدِمًا بَعْضَ تَوَارِيخِ الْأُمَمْ ... مُسْتَنْتِجًا مِنْهَا وَصَايَا وَحِكَمْ

يَزِيدُهَا الْخَيَالُ كُلَّ حُسْنِ ... كَشِعْرِ أُومِيرُسَ شَيْخِ الْفَنِّ [٣]

هٰذَا هُوَ الصِّنَاعَةُ الْجَمِيلَهْ ... كُلُّ الْفُنُونِ دُونَهُ ضَئِيلَهْ

فَشَاعِرٌ مُهَنْدِسُ الْبِنَاءِ ... أَفْكَارُهُ تُلْقَى عَلَى الْبِنَاءِ

فَيَخْرُجُ الْبِنَاءُ صَرْحًا شَاهِقَا ... لِلْعَيْنِ يَبْدُو رَائِقًا وَشَائِقَا

وَشَاعِرٌ مَنْ يَنْحَتُ التِّمْثَالَا ... يَكْسُوهُ مِنْ خَيَالِهِ جَمَالَا

---

(١) طالِعُ السَّنة الرابعة من مجلّة الضِياء تَقَع على بعضِ أمثال عرَّبتُهـا عن تأليف فِنارون في هٰذا الفنّ البَديعِ وإنْ كانَ لافُنْتين هو المُجلي في هٰذه الحَلْبة . فإنّ حكاياتِهِ أصبحتْ على أفواه صُبيان المكاتِب في كلّ صَقْع ولكلّ جَديدٍ طَلاوة

(٢) أُطالِبُ كِتاب « مَنْهَل الوُرّاد في عِلم الانتِقاد » ق ٢ ف ٤ ب ١١ و١٢ في الشِعر التمثيليّ والشِعر التخييلي . وروايةُ « مقتَل وَلَدي هيرودُس » للُغَويّ المُدقِّق والشاعِر المُفلِق عبدالله أفندي البُستانيّ إنّما هي آيةُ الآيات في الشِعر التمثيليّ ومُوشَّح « مِيلاد الرَبيع » للشاعِر العصريّ المطبوع قُسطاكي بك الحِمصيّ إنّما هو غايةُ الغايات في الشِعر التخييلي

(٣) راجِعْ ما كَتَبتُهُ في الشِعر القَصَصيّ شيخُ شُعَراء العَصْر غيرَ مُدافَع العلّامة المِفضال سُلَيمان أفندي البُستانيّ في مقدّمة تعريب إلياذة أُومِيرُس . واعلَمْ يا رَعاكَ الله أنّ « الفُلْك النُوحيّة أو المَقْصورة الرَوْحيّة في السِيرة الرُوحيّة » التي أَلمعتُ إليها في بعض حواشي القِسم الأوّل من مُقدّمة « النَجوى » إنّما هي مُلحَمة مُستطرَفة بل مُلحَمة مُستظرَفة فيها سَردتُ بالشِعر العَرَبيّ المُبين قِصّةَ ارتحالٍ إلى فِردَوس عَدْن وعُروجٍ إلى السَماء كانا قد اتّفقا لي في بعضِ الأحلام . وعلى مِثال مِلْتُن الإنكليزيّ ودَنْتي الإيطاليّ صاحِبَي المُلحمتين الشهيرتين وصفتُ ما تجلّى لي في الجنّتين . وأفضتُ بي خاتِمة المَطاف إلى الهُبوط على طُور سِيناء وعلى ذٰلك الجَبَل المُقدَّس مدحتُ « السِيرةَ الرُوحيّة » وكانَ بها مِسكُ الخِتام

وَشَاعِرٌ مَنْ يَرْسُمُ ٱلْبُلْدَانَا ... يَجْعَلُهَا بِٱلرَّسْمِ أَرْقَى شَانَا
وَشَاعِرٌ مَنْ يَخْطُرُ ٱنْتِظَامَا ... مُحَرِّكًا يَدَيْهِ وَٱلْأَقْدَامَا
وَشَاعِرٌ مُخْتَرِعُ ٱلنَّشِيدِ ... وَٱلْعَازِفُ ٱلْمُحْسِنُ ضَرْبَ ٱلْعُودِ
وَشَاعِرٌ مَنْ يُرْسِلُ ٱلْكَلَامَا ... لَا يَبْتَغِي سَجْعًا وَلَا نِظَامَا
وَشَاعِرٌ ذَاكَ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمِصْقَعُ ... وَشَاعِرٌ عِنْدِي ٱلْحَكِيمُ ٱلْمُقْنِعُ
وَشَاعِرٌ مَنْ يَكْشِفُ ٱلْمَجْهُولَا ... وَشَاعِرٌ مَنْ يَفْعَلُ ٱلْمَفْعُولَا
وَشَاعِرٌ مُصَنِّفُ ٱلْحِكَايَهْ ... وَشَاعِرٌ مُؤَلِّفُ ٱلرِّوَايَهْ
وَشَاعِرٌ مَنْ يَضَعُ ٱلْأَمْثَالَا ... وَشَاعِرٌ مَنْ يُنْشِئُ ٱلْمَقَالَا
وَيُعْوِزُ ٱلْمُحَرِّرَ ٱلْجَرِيدَهْ ... شِعْرٌ وَكُلُّ حِرْفَةٍ سَدِيدَهْ
إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا كَشَاعِرْ ... أَعْمَالُهُ تَنْبِذُهَا ٱلْبَصَائِرْ
وَمُسْتَقِي ٱلْمِيَاهِ بِٱلدِّلَاءِ ... يَجُرُّهَا بِٱلشِّعْرِ وَٱلْغِنَاءِ
وَقَائِدُ ٱلْجِمَالِ بِٱلْحُدَاءِ ... يَسُوقُهَا فِي فَدْفَدِ ٱلْبَيْدَاءِ

---

(١) إِنَّ أُومِيرُس وورجيل ودانتي وشكسبير وكُرنيل وراسين وسواهم من فحول الشعراء هم هم والدو حُذّاق الصُنّاع وأرباب الاكتشاف والاختراع قال شاعرُ الشهباء غيرَ مُنازَع ميخائيل أفندي الصقّال قبلَ إيجاد التلغراف اللاسلكيّ بنحو رُبع قرن :

هٰذِي عُيُونُكِ سِحْرُهَا ... لَمَّا رَنَتْ عَقْلِي سَبَى
نَقَرَتْ بِهُدْبِ جُفُونِهَا ... بَرْقِيَّةً حَاءً وَبَا
فَدَنَتْ بِلَا سِلْكٍ إِلَى ... قَلْبِي بِفِعْلِ ٱلْكَهْرَبَا

فتوارد الصقّال ومركوني في الخاطر كوقع الحافر على الحافر قُلْ سُبحانَ المُنشئ البديع

(٢) قالَ أبو الفَرَج ابنُ العِبريّ في كِتاب الإيقون مقا ١ ق ٥ ف ٥ ما تعريبهُ : « ألا ترى الرَضيع عِندَما يئنّ ويبكي تهدأهُ أُمه وتُناغيهِ بالأغاني الشَجيّة فينقطعُ عن البُكاء ويهدأ رَوْعه . وهٰذه الحال تُشاهَد في العَجماوات ولاسيّما الجِمال . فإنّ صاحِبها يُحمِّلها الأوساق ويحدو بها فتقطعُ السُهولَ والحُزون وهي لا تشعُر بالكلال »

وَتَسْمَعُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْوَلِيمَهْ ... وَتَسْمَعُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْوَضِيمَهْ
وَتَسْمَعُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْفُسْطَاطِ ... وَتَسْمَعُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْبَلَاطِ
وَتَسْمَعُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ... وَتَسْمَعُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلرُّوَاقِ[1]
وَتَجِدُ ٱلْأَشْعَارَ عِنْدَ ذِي ٱلسَّفَهْ ... وَتَجِدُ ٱلْأَشْعَارَ بَيْنَ ٱلْفَلْسَفَهْ
وَتَجِدُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْمَلَاحِمْ ... بَيْنَ ٱشْتِبَاكِ ٱلْبِيضِ وَٱللَّهَاذِمْ
وَتَجِدُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلْحَدَائِقْ ... مَا بَيْنَ صَوْتِ صَادِحٍ وَنَاطِقْ
وَتَجِدُ ٱلْأَشْعَارَ فِي ٱلنَّدِيِّ ... يُؤْتَى بِهَا كَمَثَلٍ مَرْوِيِّ
وَيَذْهَبُ ٱلنَّثْرُ مَعَ ٱلدَّوِيِّ ... وَيُحْفَظُ ٱلشِّعْرُ مَعَ ٱلرَّوِيِّ
بَلْ تُحْفَظُ ٱلْأَشْعَارُ بِٱلْمَعَانِي ... لَا بِقَوَافِيهَا وَبِٱلْأَوْزَانِ
فَٱلشِّعْرُ يَمْتَازُ بِسَامِي ٱلْمَعْنَى ... لَا بِٱلْقَوَافِي ٱلْمُحْكَمَاتِ وَزْنَا
يُرِيكَ «عَفْوُ ٱلنَّظْمِ» فِي ٱلْإِجَادَهْ ... مُسَابِقًا بَلْ سَابِقًا جَوَادَهْ
أَعْنِي «بِعَفْوِ ٱلنَّظْمِ» هٰذَا ٱلرَّجَزَا ... بِشَرَفِ ٱلْمَعْنَى أَنْبَرَى مُبَرِّزَا
بِبَحْرِهِ يَجُولُ وَسْطَ ٱلْمَعْمَعَهْ ... وَكُنْهِهِ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَرُبَّ شِعْرٍ بَارِعٍ فِي نَثْرِ ... وَرُبَّ نَثْرٍ بَارِدٍ فِي شِعْرِ
يُعَدُّ عِنْدِي قَوْلُ فَيْلَسُوفِ ... شِعْرًا إِذَا كَسَاهُ بِٱلشُّفُوفِ
مِنْ كُلِّ مَعْنًى فَائِقٍ لَطِيفِ ... وَكُلِّ لَفْظٍ مُؤْنِقٍ ظَرِيفِ
نَعَمْ وَإِلَّا فِكْرُهُ ٱلشَّرِيفُ ... سَبَبُهُ إِلَى ٱلْوَرَى ضَعِيفُ

---

(١) إشارةٌ إلى الفَلاسِفة الرُّواقيّين أو هُم أصحاب الأُسطوانة

(٢) قال مُعرِّب الإلياذة « سليمان الحكيمة بُستانيّ جنّة المعارف » في عُرض مقدّمته التي أنسَتنا مُقدّمة ابن خَلدون : « الرَجز ويُسمّونه « حمار الشِعر » بحرٌ كانَ أولى بهم أنْ يُسمّوه « عالِم الشِعر » لأنّه لسُهولة نظمه وَقَع عليه اختيار جميع العُلماء الذين نَظَموا المُتون العلميّة كالنحو والفقه والمنطق والطِبّ » وأمّا أنا فجمعتُ فيه بينَ الخيال والعقل والوَحي والفلسفة والطَبيعة والكتاب والعِلم والإيمان والصِناعة والدين وهٰذا ما أُريده « بالشِعر العصريّ » وبالله المُستعان

لِأَنَّهُمْ مِنْ جَسَدٍ وَرُوحِ ... بِالرَّغْمِ مِنْ مُزَاوِلِ التَّشْرِيحِ
يَعْزُوهُمُ هٰذَا إِلَى الْبَهِيمَهْ ... وَذَاكَ لِلْآلِهَةِ الْعَظِيمَهْ
كِلَاهُمَا فِي خَطَإٍ صَرِيحِ ... تُزِيلُهُ دِيَانَةُ الْمَسِيحِ
فَالشِّعْرُ كُلُّ الشِّعْرِ فِي الدِّيَانَهْ ... تَرْعَى لِكُلٍّ حَقَّهُ وَشَانَهْ
وَاضِعَةً حَدًّا لِكُلِّ عِلْمِ ... وَالشِّعْرُ عَدَّتْهُ شَقِيقُ الْفَهْمِ
وَنَزَّلَتْ وُحِيَهَا بِالشِّعْرِ ... وَعَلَّمَتْنَا شَرْعَهَا بِالنَّثْرِ
تَأْتِي بِشِعْرٍ إِنْ بَغَتْ تَلْوِيحَا ... وَالنَّثْرَ تَنْحُو إِنْ بَغَتْ تَصْرِيحَا
فَالْعِلْمُ دُونَ دِينِنَا ارْتِيَابُ ... وَالدِّينُ وَحْيٌ شَرْعُهُ الْخِطَابُ
وَالْعِلْمُ خَيْرٌ إِنْ بَغَى الصَّوَابَا ... وَإِنْ بَغَى غَيًّا فَلَنْ يُجَابَا
لَدَى الْحَكِيمِ الْعَارِفِ الْأَشْيَاءَ ... بِالْوَحْيِ وَالْمُعَرِّفِ السَّمَاءَ
وَلَوْ دَرَى الْعِلْمُ بِمَا فِي الدِّينِ ... مِنَ الْجَزَالَدَامَ فِي الْيَقِينِ
لٰكِنَّهُ ضَلَّ ضَلَالَ الشِّعْرِ ... وَالشِّعْرُ أَصْلٌ لِضَلَالِ النَّثْرِ
وَالنَّثْرُ فِيهِ نُشِرَتْ مَعَارِفْ ... «مِنْ كُلِّ عِلْمٍ تَالِدٍ وَطَارِفْ»
لِفْظُهَا قَدْ جُمِعَتْ بِالنَّظْمِ ... وَالشِّعْرُ فَنٌّ مُسْعِدٌ لِلْعِلْمِ
عِنْدَ الَّذِي يَسْتَعْمِلُ الْخَيَالَا ... وَالْعَقْلَ قَصْدَ نَيْلِهِ الْكَمَالَا
بَلْ قَصْدَ أَنْ يُعَلِّمَ الرِّجَالَا ... مَصِيرَهُمْ وَقَدْ طَغَوْا فَمَالَا
هُمُ أَفِيدُوا بِنِتَاجِ الْعَقْلِ ... دُنْيَا أَعَادَتْ دِينَهُمْ فِي ثُكْلِ
فَالشِّعْرُ إِنْ سَدَّدْتَهُ كَمَالُ ... وَالشِّعْرُ إِنْ جَرَّدْتَهُ جَمَالُ
وَالشِّعْرُ إِنْ قَيَّدْتَهُ مُحَالُ ... وَالشِّعْرُ إِنْ أَطْلَقْتَهُ وَبَالُ
لٰكِنَّهُ مُقَيَّدٌ وَمُطْلَقُ ... بِالدِّينِ وَهُوَ عَبْدُ عِلْمٍ مُعْتَقُ
لَا شِعْرَ فِي تَفْتِيشِكَ الزَّوَايَا ... لَا شِعْرَ فِي اكْتِشَافِكَ الْخَبَايَا

---

(١) هٰذا عجزُ بيتٍ من تقدِمة كِتاب النَجْوى المُسَمّاة « الأُرجوزة الاستغاثيّة بالحضرة الواحِدة الثالوثيّة »

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ كَعَبْدٍ آبِقِ ... طَوْرًا وَطَوْرًا آبَ مِثْلَ ٱلْوَامِقِ
فَهُوَ هُوَ ٱلْحَقُّ إِذَا تَرَدَّى ... وَهُوَ هُوَ ٱلْبُطْلُ وَقَدْ تَرَدَّى
قَيِّدْهُ بِٱلدِّينِ تَجِدْهُ صَالِحَا ... وَإِنْ غَذَاهُ ٱلْعِلْمُ يَغْدُو نَاجِحَا
فَٱلشِّعْرُ عِنْدِي إِنْ عَدَاهُ ٱلشَّرُّ ... وَحْيٌ وَلَكِنْ ضَمَّهُ ٱلْقِمَطْرُ
أَيِّدْهُ ضِدَّ ٱلْكُفْرِ بِٱلْخَطَابَهْ ... يُذَلِّلَا كِلَاهُمَا صِعَابَهْ
وَيُفْحِمَا وَيَكْبِتَا أَرْبَابَهْ ... وَيَدْحَرَا وَيَكْسِرَا أَحْزَابَهْ
فَٱلشِّعْرُ لِلدِّينِ غَدَا سِلَاحَا ... وَٱلدِّينُ لِلْعِلْمِ بَدَا مِصْبَاحَا
وَنَاشِرُوا ٱلدِّينِ هُمُ أَعْدَاءُ ... لِلْجَهْلِ وَٱلْعِلْمُ بِهِمْ لَأْلَاءُ
بِدُونِهِمْ أَصْبَحَتِ ٱلْأَضْوَاءُ ... ظَلْمَاءَ فِي كُفْرٍ هُوَ ٱللَّأْوَاءُ
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ وَلَيْسَ ٱلشَّاعِرْ ... إِلَّا ٱلَّذِي بِدِينِهِ يُفَاخِرْ
هٰذَا هُوَ ٱلشِّعْرُ وَلَيْسَ ٱلنَّاظِمْ ... سِوَى مُصَوِّرٍ بِهِ وَرَاسِمْ
«يُقَرِّبُ ٱلْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ» ... وَيُبْعِدُ ٱلْأَدْنَى بِمَعْنًى مُعْجِزِ
فِي ضُمَّةٍ قَدْ يَجْمَعُ ٱلشَّتَاتَا ... مِنْ كَوْنِنَا وَيَحْشُرُ ٱلرُّفَاتَا
خَفِيُّهُ بِهِ يَعُودُ بَائِنَا ... وَإِنْ دَنَا بِهِ يَرُوحُ بَائِنَا
عِنْدَ ٱلَّذِي يُسَرِّحُ ٱلْعُيُونَا ... فِي رَسْمِهِ مُجْتَلِيًا فُنُونَا
فَيَرْسُمُ ٱللهَ وَمَبْرُوءَاتِهِ ... مُبَيِّنًا فِي خَلْقِهَا غَايَاتِهِ
مُحَاكِيًا شِهَابَهَا بَيَانَا ... مُلَوِّحًا كَبَرْقِهَا أَحْيَانَا
وَهُوَ عَلَيْهَا أَصْبَحَ ٱلسُّلْطَانَا ... فَأَنْعَشَتْ أَنْفَاسُهُ ٱلْكِيَانَا
وَقَدْ دَعَوْهُ ٱلْعَالَمَ ٱلصَّغِيرَا ... لِأَجْلِهَا وَٱلْعَالَمَ ٱلْكَبِيرَا[1]

---

(١) هٰذا المصراع هو صدرُ بيتٍ مُختطَف من حِضن أُمّ الأراجيز ألفيّة الإمام مُحمّد بن مالك احتذاءً على مِثال أشهر شُعَراء العِراق في القرن التاسع عشر عبد الباقي العُمَريّ صاحب « التِرياق الفاروقيّ » أو هو « الباقيات الصالحات »

(٢) راجعْ مُقدّمة « النَجوى » ق ١ ف ٢ ص ٣٨

فَٱحْتَقَرَ ٱلدُّنْيَا وَحَارَ فَطِنَا ... وَٱعْتَبَرَ ٱلدِّينَ وَصَارَ مُؤْمِنَا
وَبِٱلتُّقَى وَٱلْبِرِّ أَمْسَى عَابِدَا ... يُحْيِي ٱللَّيَالِي قَانِتًا وَهَاجِدَا
بِشِعْرِهِ قَدْ مَلَأَ ٱلْمَعَابِدَا ... قَصَائِدًا يَتْلُونَهَا نَشَائِدَا

الخطابة

هٰذَا ٱلْوُجُودُ شَغَفَ ٱلْإِنْسَانَا ... وَسِرُّهُ صَيَّرَهُ حَيْرَانَا
فَوَلَجَ ٱلصَّالِحُ فِي ٱلْإِيمَانِ ... وَخَرَجَ ٱلطَّالِحُ ذُو ٱلْعِصْيَانِ
مُجَاهِرًا بِٱلْكُفْرِ وَٱلْعُدْوَانِ ... مِنْ عَهْدِ قَايِنَ إِلَى «رِنَانِ»[٢]
مِنْ بَعْدِ طُوفَانِ أَتَى نُمْرُودُ ... وَٱشْتُقَّ مِنْ لُغَتِهِ ٱلْمَرِيدُ[٣]
وَهُوَ ٱلَّذِي كَٱلنِّمْرِ قَدْ تَمَرَّدَا ... مُعَرْبِدًا وَجَاحِدًا وَمُلْحِدَا
أَمَّا ٱلَّذِي قَدْ قَارَنَ ٱلْإِذْعَانَا ... فَإِنْ بَغَى لِدِينِهِ بُرْهَانَا
وَجَدَهُ إِذْ هٰذِهِ ٱلْأَكْوَانُ ... شَغَلَهَا وَحَقَّكَ ٱلرَّحْمٰنُ[٤]
بِحَوْلِهِ وَرُوحِهِ وَجَوْهَرِهْ ... وَطَوْلِهِ وَرَوْحِهِ وَكَوْثَرِهْ

---

(١) أُطْلُبْ بعضَ حواشي مقدّمة «النجوى» ق ١ ف ١ ص ٢٦ وف ٥ ص ١٠١ و ١٠٢ حيثُ تجد تفسيرَ آية الكتاب وهي: «قَالَ ٱلْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ لَيْسَ إِلٰه»

(٢) هو المُستشرق الفرنسويّ المارق من الدين الكافر العصريّ المشهور مُصنّف حيوة المسيح...

(٣) اسم «نُمْرُود» في العبرانيّة يعني «المُتمرّد» وتُعزَى إليهِ ديانةُ المجوس وعبادةُ النار وأوّل وثنيّةٍ انحازَ إليها البَشَر

(٤) «مَالِئُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْض» نُبُوَّة إرميا ٢٣ : ٢٤

(٥) طالِعْ في حواشي مقدّمة «النجوى» ق ١ ف ٢ ص ٤٢ قولَ القدّيس غريغوريوس الكبير وهو: «إنّ الله موجودٌ بالعموم في جميعِ الأشياء قُوّةً وحُضورًا وذاتًا. لٰكنّهُ يُقال إنّه موجودٌ بالخصوص في بعضِ الأشياء نِعمة» ولقد شَرَحَهُ شمسُ المَدارس القدّيس توما اللاهوتيّ شرحًا لا زيادةَ وراءَهُ لمستزيد

لِذَا بَنى ٱلْمَعْبَدَ يَحْكِي ٱلْعَالَمَا ... وَعَبْدَ ٱلْخَالِقَ يَحْكِي آدَمَا
وَرَامَ مِنْهُ نِعْمَةً تُنْجِدُهُ ... لَعَلَّهَا إِلَى ٱلسَّمَا تُصْعِدُهُ
كَأَنَّهُ قَدْ نَسِيَ ٱلرَّزِيَّهْ ... وَمَا جَنَاهُ ٱلْجِدُّ مِنْ خَطِيَّهْ
فَنَالَهَا مِنْ عِنْدِ قَادِي ٱلْبَسِ ... وَلَا تَسَلْ عَمَّا ٱقْتَنَى مِنْ قَبَسِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي إِلَى إِنْقَاذِهْ ... وَيُدْخِلَ ٱلضَّلِيلَ فِي مَعَاذِهْ
إِذَا تَأَمَّلَ ٱلْفَتَى فِي نَفْسِهْ ... وَعَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَحِسِّهْ
رَأَى كَمَالَ ٱلْكَوْنِ فِيهِ ٱجْتَمَعَا ... وَنَفْسُهُ أَمْسَتْ لَهُ مُسْتَوْدَعَا
كَأَنَّهُ ٱلْمِرْآةُ فِيهَا ٱنْطَبَعَا ... جَمَالُ مَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَا مَعَا
كَأَنَّهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي مَشْهَدِ ... صُنْعِ ٱلْقَدِيرِ ٱلْأَزَلِيِّ ٱلْأَوْحَدِ
كَأَنَّهُ مِنْ خُلْقِهِ فِي مَعْبَدِ ... رَبِّ ٱلْبَرَايَا ٱلسَّرْمَدِيِّ ٱلصَّمَدِ
فَٱلْحُكَمَا بِنَفْسِهِمْ قَدْ بَلَغُوا ... مَعْرِفَةَ ٱلْبَارِي وَفِيهَا نَبَغُوا[1]
مُذْ عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ سُجَّدَا ... وَكَمْ أَقَامُوا هَيْكَلًا وَمَسْجِدَا
وَكَمْ أَجَادُوا وَأَفَادُوا فِي ٱلْأُمَمْ ... بِمَنْطِقٍ يَنْثُرُ لُؤْلُؤَ ٱلْحِكَمْ
فِي عَالَمِ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْعِبَادَهْ ... وَعَالَمِ ٱلْإِصْلَاحِ وَٱلسِّيَادَهْ[2]
بِٱلشِّرْكِ لَمْ يَضْلِلْ سِوَى ٱلطَّغَامِ ... وَٱلْمُظْلِمِي ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْأَنَامِ[4]

---

(١) قال الكاتب الفرنسوي دِلامناي في عرض كلامه على «الصناعة والحسن» ما مُفادُه: «إنّ المعبد هو صورةُ الكون ومثالُه. فكما أن البارئ يملأُ الكون يملأُ المعبد وكما أنه تعالى معبودٌ في الكون معبودٌ في المعبد. فكِلا الكون والمعبد إنّما هو مسكنُ الله وموضعُ عبادته»

(٢) تصفح مثلًا «رسالة حي بن يقظان» تُلفِ فيها مصداق كلامي. وهي خلاصةُ أقوال الفلاسفة القدماء. ولاسيّما أفلاطون زعيم الإشراقيين وأرسطو زعيم المشّائين

(٣) من مثل سُقراط وزينون في عالم الصلاح وديمُستين وشيشرون في عالم الإصلاح

(٤) أطلب إحدى حواشي مُقدّمة «النجوى» ق ١ ف ١ ص ٢٦ و ٢٧ وقد خُتِمت ببعض أبيات لأحمد شوقي شاعر مصر الكبير

فَٱلْوَحْيُ جَاءَ مُسْعِدًا وَمُرْشِدَا ... خُطَى ٱلْفَتَى إِلَى مَحَجَّةِ ٱلْهُدَى
حَتَّى أَتَى يَنْبُوعَ أَسْرَارِ ٱلْفِدَى ... وَأَنْقَذَ ٱلْبَرِيَّةَ مِنْ وَعْثِ ٱلرَّدَى
وَقَوَّمَ ٱلتَّعْلِيمَ وَٱلْآدَابَا ... وَعَمَّمَ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْمَطَابَا
وَبَثَّ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلدُّعَاةَ وَٱلرُّسُلْ ... مُمَهِّدًا إِلَى ٱلسَّمَا كُلَّ ٱلسُّبُلْ
وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِمِ ٱلْحُفَّاظُ ... وَٱلْعُلَمَا وَٱلْخُطَبَا ٱلْوُعَّاظُ
وَنَشَرُوا إِنْجِيلَهُ فِي ٱلْعَالَمِ ... فَٱتَّبَعَ ٱلْمَسِيحَ وُلْدُ آدَمِ
«فِي كُلِّ صَقْعٍ صَوْتُهُمْ قَدْ سُمِعَا» (١) ... وَلَبَّنُ ٱلتَّهْذِيبِ مِنْهُمْ رُضِعَا
وَكُلُّ ذَا بِنِعْمَةِ ٱللهِ جَرَى ... وَقُوَّةِ ٱلَّذِينَ زَانُوا ٱلْمِنْبَرَا
تَسَابَقَ ٱلْمِنْبَرُ وَٱلْبَرَاعَهْ ... وَهْوَ ٱلْمُجَلِّي فِي مَدَى ٱلْبَرَاعَهْ
وَهْوَ لَدَيْنَا حِلْيَةُ ٱلْكَنَائِسْ ... وَبَهْجَةُ ٱلنَّدَوَاتِ وَٱلْمَدَارِسْ
تَعَالَ يَا هٰذَا غَدًا لِلِيعَهْ ... وَٱحْضُرْ لَدَى طُقُوسِهَا ٱلْبَدِيعَهْ
تَلْقَ جَمَالًا يُبْلِجُ ٱلْبَوَاصِرْ ... وَيَلِجُ ٱلْآذَانَ وَٱلْبَصَائِرْ
مِنْ رَائِقٍ وَمُؤْنِقٍ وَرَائِعْ ... وَشَائِقٍ وَمُشْرِقٍ وَسَاطِعْ
فِي ٱلْمُنْتَهَى يَغْدُو ٱلْمُصَلِّي نَاصِتَا ... وَٱلْأُرْغُنُ ٱلشَّادِي يَعُودُ صَامِتَا
مُحْتَرِمِينَ مَنْ تَرَاهُ يَنْبَرِي ... لِخُطْبَةٍ مُرْتَقِيًا فِي ٱلْمِنْبَرِ
كُلُّ ٱلْفُنُونِ لِلْخَطِيبِ ٱلْمِصْقَعْ ... تَرْنُو وَتَجْثُو سُجَّدًا وَرُكَّعْ (٢)

---

(١) مزمور ١٨ : ٥ ورومية ١٠ : ١٨

(٢) مِن مِثل بولس الإناء المُصطفَى ويوحنَّا الذَهبيّ الفم وبُوسُوت « نَسْر مدينة مُو » وسواهم مِن مَصاقِع الخُطَباء مُنذُ عهدِ الرُسُل حتّى اليوم

(٣) كيفَ لا وإنّ « الخَطابة » بقَوام « الخَطيب » تحكي « البِناء » وبشخصِهِ تحكي « النقاشة » وبصُورتِهِ تحكي « الرَسم » وبإشارتِهِ تحكي « الحركة المُنتظِمة » وبصَوتِهِ تحكي « الموسيقى » وبعِبارتِهِ تحكي « الشِعْر » وكفى بذلك تعريفًا « بالخَطابة والخَطيب » والسلام

هٰذَا هُوَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلسَّلِيقَهْ ... هٰذَا هُوَ ٱلْمُنْشِئُ فِي ٱلْحَقِيقَهْ[1]

هٰذَا هُوَ ٱلْحَكِيمُ وَٱلْأُسْتَاذُ ... هٰذَا هُوَ ٱلْمَرْجِعُ وَٱلْمَلَاذُ

هٰذَا هُوَ ٱلْمُشْتَرِعُ ٱلْمُنَظِّمْ ... هٰذَا هُوَ ٱلْعَالِمُ وَٱلْمُعَلِّمْ

فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْعِبْرَةُ فِي ٱلْعِبَارَهْ ... وَفِي ٱلْجَهَارَةِ وَفِي ٱلْإِشَارَهْ

فِي ٱلْمَعْبَدِ ٱلْعِبْرَةُ فِي ٱلْإِيجَاءِ ... وَفِي سَدَادِ ٱلْقَوْلِ لَا ٱلْإِلْقَاءِ[2]

تُصْغِي وَلٰكِنْ يَعِظُ ٱلْقُدُّوسُ ... مُنَاجِيًا إِنْ وَعَظَ ٱلْقِسِّيسُ

إِنْ كَانَ مِلْسَانًا فَنِعْمَ ٱلْكَلِمُ ... وَإِنْ غَدَا مُقَصِّرًا فَٱلنِّعَمُ

يُجْزِلُهَا ٱللهُ لَنَا بِخُطَبِهْ ... مُنَجِّيًا مَارِقَنَا مِنْ رِيبِهْ

وَمُنْهِضًا أَثِيمَنَا مِنْ رَدْغَتِهْ ... وَمُدْخِلًا صَالِحَنَا فِي طَغْمَتِهْ

إِنْ شَاءَ أَنْ يُدْخِلَهُ فِي ٱلدُّنْيَا ... يُذْكِرُهُ بِهَا سَمَاهُ ٱلْعُلْيَا

تَجِدْهُ بَيْنَ ٱلْوَرَى كَمَلَكِ ... يُنِيرُهُمْ كَكَوْكَبٍ فِي حَلَكِ

هٰذَا هُوَ ٱلدِّينُ وَلَيْسَ ٱلْوَاعِظْ ... سِوَى مُذَكِّرٍ بِهِ وَحَافِظْ

أَجَلْ وَإِلَّا فَهْمُ ٱلْمَنْطِيقْ ... يَفُوتُهُ ٱلْإِلْهَامُ وَٱلتَّوْفِيقُ

فَإِنْ يُدِرْ عَلَى ٱلْمَلَا رَحِيقَا ... يُرْضِ بِهِ ٱلزِّنْدِيقَ وَٱلْفِسِّيقَا[3]

مِنْ غَيْرِ مَا نَجْعٍ وَلَا تَأْثِيرِ ... وَلَوْ سَمَا فِي ٱلسَّجْعِ وَٱلتَّحْبِيرِ

فَٱلْعِلْمُ فِي ٱلدِّينِ وَلَيْسَ ٱلْعِلْمُ ... فِي عَالَمٍ خُيُورُهُ هِيَ ٱسْمُ

---

(١) إنّ الكتابة من الفنون الجميلة وهي والخطابة سيّان . وتمتازُ الخطابة عنها بنوعِ العبارة لأنّ الكاتب قد يستعمل الإيجاز فإذا لم يفهم القارئ كلامه يستطيع أن يُعيد تلاوته غيرَ مرّة إلى أن يُحيط به علما . وأمّا الخطيب فغايتُهُ التأثيرُ في نفسِ السامع فينحو نحوَ الإطناب مُتفنّنًا في أساليب الفصاحة إلى أنْ يتحقّقَ بلوغَ المُراد. فالكاتب شاعِر وقد يكون غيرَ شاعِر وما الخطيب إلّا كاتبٌ وشاعِرٌ في وقتٍ معا

(٢) هٰذا هو السرُّ الفارق بينَ الخطابة المدنيّة والخطابة الدينيّة

(٣) مَدارُ الوَعظ على العقائد والآداب كما لا يخفى

في عالمِ إنسانُهُ كوحشِ ... ذيدَنُهُ في مطمعٍ ونهشِ
ماذا أفادَ سكبُهُ الدينارا ... وحبُّهُ ذا العالمَ الغرّارا
ماذا أفادَ كسبُهُ الأوزارا ... وجلبُهُ بالدعرِ الشنارا
ماذا أفادَ ركبُهُ الأخطارا ... مستهلكًا لنيلِهِ الأخطارا
ماذا أفادَ فتشُهُ الآثارا ... ونبشُهُ الأنجادَ والأغوارا
ماذا أفادَ كشفُهُ البخارا ... والكهربا وشفُّهُ الأسرارا
ماذا أفادَ كونُهُ مغوارا ... وبطلًا مغامرًا كرّارا
ماذا أفادَ حملُهُ البتّارا ... مصطحبًا جحفلَهُ الجرّارا
ماذا أفادَ برُّهُ الديارا ... وفتحُهُ الأقطارَ والأمصارا
ماذا أفادَ ذبحُهُ الأسارى[٢] ... وربحُهُ القلاعَ والأسوارا
في الحربِ تلقاهُ كليثٍ جائرِ ... يلتهمُ البلادَ غيرَ قانعِ
وغيرُهُ يحكيهِ في السياسهْ ... وإنْ بدا مغيّرًا لباسهْ
مجاهرًا بحبِّهِ للخيرِ ... مهيّئًا جيرانَهُ للضيرِ
هذهِ هيَ الدنيا وفيها الشرُّ ... هذا هوَ الدينُ وفيهِ البرُّ
بعهُ بها تغدُ لنا إبليسا ... بعها بهِ تغدُ لنا قدّيسا

---

(١) قالَ بطرس رئيس الحواريّين: «أُهرُبوا منَ الفسادِ الّذي هوَ في العالمِ منَ الشهوة» ٢ بط ١: ٤ وقالَ يوحنّا الرسول: «لا تحبّوا العالمَ ولا ما في العالمِ إنْ كانَ أحدٌ يحبُّ العالمَ فليستْ فيهِ محبّةُ الآبِ. لأنَّ كلَّ ما في العالمِ هو شهوةُ الجسدِ وشهوةُ العينِ وفخرُ الحياةِ وليسَ ذلكَ منَ الآبِ بلْ منَ العالمِ. والعالمُ وشهوتُهُ يزولانِ وأمّا منْ يعملُ بمشيئةِ اللهِ فإنّهُ يبقى إلى الأبد» ١ يو ٢: ١٥ و١٦ و١٧

(٢) إشارةٌ من طرفٍ خفيّ الى نابليون الأوّل...

الدين

فَالدِّينُ كانَ مَطْمَحَ الْفُنُونِ ... بِالرَّغْمِ مِنْ مَكابِرٍ أَفِينِ
وَعِنْدَنا التَّارِيخُ أَوْفَى شاهِدِ ... لِكَبْتِ خَصْمٍ كافِرٍ مُعانِدِ
وَحِينَما حادَتْ عَنِ الصَّلاحِ ... وَالدِّينِ حارَتْ عَثْرَةُ الْأَرْواحِ
كانَتْ لَدَيْنا داعِيَ الْأَفْراحِ ... فَأَصْبَحَتْ مَجْلَبَةَ الْأَتْراحِ
طَلاحُها أَضْحَى لَنا فَسادا ... تَخَلَّلَ النُّفُوسَ وَالْأَجْسادا
ذاكَ الْبِناءُ كانَ يَوْمًا هَيْكَلْ ... فَعادَ لِلْفَوْضَى حِمًى مُؤَثَّلْ
وَالنَّحْتُ كانَ لِدُمًى الْمَعابِدْ ... فَعادَ تِمْثالًا لِشَخْصِ الْجاحِدْ[1]
وَالرَّسْمُ كانَ صُورَةَ الْعَذْراءِ ... فَعادَ رَسْمَ رَبَّةِ الْفَحْشاءِ
وَالرَّقْصُ كانَ مُبْتَغَى داوُدِ ... وَالْيَوْمَ عادَ مِنْ شِباكِ الْخُودِ
وَالْمُوسِقَى كانَتْ حُلَى الْكَنائِسْ ... وَالْيَوْمَ عادَتْ شَرَكَ الْأَبالِسْ
وَالشِّعْرُ كانَ مِدَحًا لِلْخالِقِ ... وَالْيَوْمَ عادَ مَسْرَحًا لِلْعاشِقِ
وَلِلصَّلاحِ كانَتِ الْخَطابَهْ ... تَنْهَضُ بِالْخاطِئِ لِلْإِنابَهْ

---

(١) في هذا البيت إلماعٌ الى تِمثال الجاحِد المُتمرِّد «جُرْدانو برونو» وقد نُصِبَ على إحدى ساحات رومة العموميَّة لعهدِ الحَكيم الأَوحد البابا لاون الثالث عَشَر المُخلَّد الذِكر. فألقى من جَرّائهِ ذلك الخِطاب الفريد الذي قالَ فيهِ رَحِمَهُ الله عِدادَ حَسَناتِه: «لقد امتدَّ بنا زَمانُنا حتّى رأينا «عَلامَةَ الْخَرابِ في الْمَكانِ الْمُقَدَّس» وبِصِفَةِ كَوننا مُتقلِّدين سِياسةَ المسيحيّين قاطِبةً وحِراسةَ الدِين وحقَّ المُدافعة عنه نرفعُ صوتَنا ونحتجُّ على ما جرى بذلك مِن إهانة رومية والتدنيس الفظيع لقداسة الدِين المسيحيّ. وبغاية الأسى والأسف نُعلِن للعالَم الكاثوليكيّ بأسرهِ هذه الفَعلةَ الشَنعاء التي انتُهِكت بها حُرمةُ الدِين المُقدَّس». ولقد أَصدر في هذه الأيام سيّدنا الأب الأقدس بيّوس العاشر المالِك سَعيدًا منشورًا عامًّا مِلؤُه حِكمة كَبَت به الجاحِدين وأَخزاهم

وَمَنْ يَحُورُ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ... تَرُدُّهُ إِلَى قَوِيمِ السُّبْلِ
وَالْيَوْمَ عَادَتْ عُدَّةَ الزِّنْدِيقِ ... تَنْصُرُهُ عَلَى ذَوِي الْحُقُوقِ
بِهَا يُثِيرُ فِي الشُّعُوبِ الْإِحَنَا ... مُسْتَعْجِلًا عَلَى الرُّؤُوسِ الْمِحَنَا
مُنَكِّبًا لَهُمْ سَوَاءَ السَّنَنِ ... وَجَائِزًا بِهِمْ حُدُودَ السُّنَنِ
مُعَادِيًا أَهْلَ الْعُلُومِ وَالْفِطَنْ ... وَمُلْقِيًا مَا بَيْنَهُمْ بَذْرَ الْفِتَنْ
فَأْبِكِ أَيَا صَاحِ بُكَا الْخَنْسَاءِ ... وَاتْلُ «الْمَرَاثِي» فِي بَنِي حَوَّاءِ
مُعْظَمُهُمْ قَدْ ضَلَّ بِالْإِغْوَاءِ ... وَرَاحَ يَسْرِي فِي دُجَى الظَّلْمَاءِ
مُحَاكِيًا تَسَكُّعَ الْعَشْوَاءِ ... حَتَّى غَدَا مَوْعِظَةً لِلرَّائِي
هُبُّوا مِنَ الْكُفْرِ أَيَا أَقْوَامُ ... وَرَاقِبُوا اللهَ أَيَا ظُلَّامُ
أُوبُوا إِلَى الدِّينِ وَإِلَّا فَاحْذَرُوا ... مِنْ أَنْ تَحِلَّ بِالْفُنُونِ الْغِيَرُ
فَمَصْدَرُ الصِّنَاعَةِ الْعَتِيدَهْ ... بِهَا تَكُونُ بَرَّةً رَشِيدَهْ
وَهْيَ عَلَى مِحْوَرِهَا تَدُورُ ... وَدُونَهَا الْخُمُولُ فَالدُّثُورُ
هٰذَا مَقَالِي كُلُّهُ صَوَابُ ... حُلْوٌ لِهٰذَا وَلِذَاكَ صَابُ

---

(١) نَظير ميرابو أبي ثورة فرنسا الشهير . . .

(٢) أُريد مَراثي إرميا

(٣) للأُستاذ اللُّغويّ المُحقِّق الشيخ سعيد الشرتونيّ خِطَاب نَفيس موضوعه «الدين مُقتضَى الحِكمة والكُفر مُقتضَى الجهل» أثبت فيه بخمسة مناهج : «أنّ القائلين بالدين هم أهل الحِكمة والعِلم . وأمّا الذين قالوا انّ الدين ظلمٌ للعقل فهم الجهَلة الأَغرار الذين تبرّأت منهم الحِكمة»

(٤) أينَ اليوم المُتفنِّنون العَبقريّون أكفاء ميكلأَنجلو في الهندسة والنحت ورافائيل في التصوير وباسترينا في الإيقاع ودَنتي في القَريض وكُرنيل في التمثيل وبوسُوت في البَلاغة وفِنلون في الإنشاء وسِواهم من فُحول المُبدِعين المُعجزين البالِغين غايةَ التمام الأُلى هيهاتِ أنْ يأتي بمثلهم عَصرُ الكُفر وقد كانتْ وانْ تَزال آثارُهم من الصالِحات الباقِيات على وجهِ الدهر

لَهُ ٱلثِّقَاتُ إِنْ نَحَوْا أَصَابُوا ... وَمَطَرُوا بِهَدْيِهِمْ وَصَابُوا
وَٱلْبُغَاةِ تُجْلَبُ ٱلْأَوْصَابُ ... بِهِ لِأَنَّ سَعْيَهُمْ يُصَابُ
وَمَنْ بَغَى رَدًّا عَلَى مَقَالِي ... عَلَيْهِ أَنْ يَصْلُحَ فِي ٱلْفِعَالِ
حَتَّى يَكُونَ خَالِيًا مِنَ ٱلْغَرَضْ ... وَيَنْتَفِي مِنْ قَلْبِهِ كُلُّ مَرَضْ
وَبِٱلْكُنَى يُغْنِي عَنِ ٱلتَّصْرِيحِ ... وَٱلشِّعْرُ بِٱلتَّلْوِيحِ وَٱلتَّلْمِيحِ
قُلْ لِلَّذِي يُخْطِئُ فِي ٱلْإِجَابَهْ ... «أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَهْ»

تمَّ طبع الأرجوزة بحولهِ تعالى وحُسنِ تيسيرهِ
وقد نُشِرت تِباعًا في أعداد السنة العاشرة من مجلَّة «المشرق» الوُضَّاءة

obeikandl.com

مسكُ الختام

نموذج

الشعر العصريّ

هٰذه القصيدة نُشِرتْ في جريدة «النصير» الغرّاء بعنوان

«عفاف العادات أو ذمّ بعض عادات

أعدت الشهباء وكانت مدعاة الأسواء»

أَهْوَى ٱلْكَمَالَ فَإِنَّهُ فِي ٱلْفَانِيَهْ ... يَحْكِي جَمَالًا يُجْتَلَى فِي ٱلْبَاقِيَهْ

يَا عَاذِلِي فِي حُبِّ حَاضِرَةٍ بَدَتْ ... بَيْنَ ٱلْحَوَاضِرِ كَٱلْفَتَاةِ ٱلْفَانِيَهْ

أَقْصِرْ فَإِنِّي مَا حَيِيتُ مُتَيَّمٌ ... وَٱعْلَمْ بِأَنِّي لَا أُبِيحُ ٱلْغَالِيَهْ

لَا مِسْكَ يُرْضِينِي وَلٰكِنْ هِمَّتِي ... تَسْمُو إِلَى نِسْكِ ٱلْعُصُورِ ٱلْخَالِيَهْ

*
* *

وَأَوَدُّ لَوْ أُوتِيتُ كُلَّ مَوَاهِبِ ٱلْـ ... ـقُدَمَا لِأَهْجُوَ بِٱلْقَرِيضِ ٱلْحَاوِيَهْ

وَأَذُمَّ عَادَاتٍ غَدَتْ حَلَبٌ بِهَا ... مَخْفُوضَةً قَدْرًا وَكَانَتْ عَالِيَهْ

وَأَلُومَ قَوْمًا شُبِّهُوا بِنِسَائِهِمْ ... وَنِسَاؤُهُمْ أَحْيَيْنَ سَمْعَ ٱللَّاغِيَهْ

فَهَوَوْا بِهِنَّ إِلَى ٱلْحَضِيضِ وَلَوْ دَرَوْا ... لَبَكَوْا بِعَيْنٍ كَٱلسَّحَائِبِ هَامِيَهْ

*
* *

أَفَمَا يَرَوْنَ نِسَاءَهُمْ قَدْ نُبِّهَتْ ... أَفْكَارُهُنَّ بِأَذْنِهِنَّ ٱلْوَاعِيَهْ

مَاذَا سَمِعْنَ سِوَى حَدِيثِ مُقَامِرٍ ... وَمُسَامِرٍ وَسْطَ ٱلدَّيَاجِي ٱلْغَاوِيَهْ

وَمُخَاصِرٍ فِي ٱلرَّقْصِ غَادَتْنَا وَقَدْ ... سَرَقَ ٱلْخِيَامِنْ وَجْهِهَا فِي ٱلزَّاوِيَهْ
وَمُكَابِرٍ يَبْدُو بِوَجْهٍ ضَاحِكٍ ... عِنْدَ ٱلْخَلِيلَةِ وَٱلْخَلِيلَةُ آوِيَهْ
وَمُنَاقِرٍ فِي ٱلْأَمْرِ لَا يُلْهِيهِ عَنْ ... هُ غَيْرُ نَقْرِ ٱلدُّفِّ عِنْدَ ٱلرَّاوِيَهْ
وَمُجَاهِرٍ خَلَعَ ٱلْعِذَارَ وَعُذْرُهُ ... بَيْنَ ٱلْحَرَائِرِ أَنَّهُ ٱبْنُ ٱلْعَاوِيَهْ
وَمُعَاقِرٍ بِنْتَ ٱلْكُرُومِ يَشِيمُ فِيـ ... ـهِنَّ ٱلْقَذَى وَٱلْعَيْنُ تَحْمِلُ سَارِيَهْ
خَطْبٌ بِهِ بُرْدُ ٱلْعَفَافِ تَمَزَّقَتْ ... أَهْدَابُهُ عَنْهُنَّ وَهِيَ ٱلْغَافِيَهْ

* * *

هٰذَا مَقَالِي ٱلْيَوْمَ فَٱحْفَظْهُ وَلَوْ ... شِئْنَ ٱلْإِبَانَةَ لَاطَّرَحْتُ ٱلْقَافِيَهْ
وَمَلَأْتُ أَعْمِدَةَ «ٱلنَّصِيرِ» حَقَائِقًا ... تُضْحِي لَهُنَّ ٱلْمَوْعِظَاتِ ٱلشَّافِيَهْ
فَٱلْعِلْمُ كُلُّ ٱلْعِلْمِ فِي ٱلتَّهْذِيبِ بَلْ ... هٰذَا كِتَابِي وَٱلْمَعَارِفُ حَاشِيَهْ